4 me Année, No. 156. | Lundi - 29 - 6 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العــــدد ١٥٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٥٥ — ٢٩ يونيه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العــــــدد

أروع أيام سعد

لعل يوم الجمعة التاسع عشر من هذا الشهر كان أروع أيام سعد ! انتصر فيه وهو رفاتٌ وفكرة وذكرى على الحقد الذى طالما نبح المجد ، وعلى السلطان الذى طالما قهر الزعامة . كانت روعة أيامه الغُرّ التى أسفرت عنها ليالى مالطةَ وسيشيل وجبل طارق من شخصيته التى طاولت العروش ، وعزيمته التى صاولت الجيوش ، وبلاغته التى عاجزت القدر ؛ أما يوم نقل الرفات إلى الضريح الرسمى فكانت روعته من الفكرة التى ثبتت على الاضطهاد وغلبت على الاستبداد وظهرت على الإفك ظهور الدين على الشرك بالإيمان والإخلاص والتضحية. وسر الجلالة العظمى فى سعد أنه كان وهو حى يمثل كبرياء الشعب ، ثم أصبح وهو مَيِّتٌ يمثل سلطان الأمة . كان يمثل كبرياء الشعب لأنه خرج منه ونبغ فيه ، فكان حجة له على كبرائه الذين كانوا يتأبهون عنه ، ويلمزونه بالنعمة ، وينبزونه بالفلاحة : ثم عاد يمثل سلطان الأمة لأن جهاده الباسل بها ولها جعل اسمه رمزاً للاستقلال وعلماً على الدستور وعنواناً على الديمقراطية .

فظاهر الفرح المستطير ، أو الحزن المُمْرض ، أو العزة المستطيلة ، التى أعلنها الشعب يوم خرج من معتقله أو رجع من منفاه ، ويوم الاحتفال بوفاته أو بنقل رفاته ، كانت مظاهر صادقة لعواطفه المتحدة ، صدرت عنه بدافع من نفسه وباعث من شعوره ، لأن سعدا لم يعدْ رجلاً محدود الوجود بذاته ومميزاته ورغائبه ، وإنما أصبح معنى مقدساً من معانى الشمول يختصر فى نفسه خصائص جنسه ، ويجمع فى قلبه أمانىّ شعبه ؛ فهو علم يخفق بالأمل ، ومنارة تشع بالهداية ، ورسول من رسل القيادة الذين يبعثهم الله إلى الناس فى متاهة السُبُل وضلالة النفوس فيكونون رمزاً لرجاء الانسان فى الله ، ومثالاً لرحمة الله بالانسان

* * *

كانت النفس المصرية فى ذلك اليوم المشهود على حال عجيبة من شتى الأحاسيس ومختلف العواطف : سرور مَزْهُوٌّ بفوز الإرادة القومية واستطاعتها بعد تسع سنين أن تصحح خطأً فادحاً من أخطاء الغرور الجاهل ، وحزنٌ دخيل هادئ لاحتجاب الشعاع وقد غام الأفق واستعجم المسلك ، ثم شماتة حانقة تصيح بالجبابرة الضعاف من أفواه الطرق ومنافذ البيوت ، وعلى أطورة الشوارع وسُوُح الميادين : أنا الأمة ! أنا الإرادة الأولى ، وأنا الكلمة الأخيرة !

وكان فى موكب الرفات المنتصر قوم يمشون ، وجوههم إلى الأرض ، وأفكارهم الى الوراء ، يقولون فى أنفسهم : استعنا على كبْت هذا المجد الثائر بقوة السلطان وضجة البرلمان وثروة الخزانة ، فاذا كل أولئك معناه هَوَج العاصفة ، ورهج الغبار ، وسرف المطر ؛ وإذا الشمس من فوق أولئك لا تزال ساطعة الشعاع دائبة الارتفاع لا يرتقى اليها صخب ، ولا يعاق بها قتَم ! إن الموت نفسه قد انخزلت عنه قواه فلم يستطع طمسه فى عين الوجود ولا محوه من سمع الزمن . لا يزال ملء الحاضر وعدة المستقبل ، ومن العناء الباطل أن يحاول الجبروت مهما طغى أن يدخله فى الماضى . هؤلاء هم الجند الذين طالما أكرهناهم على أن يطاردوه فى الأقاليم ، ويحاصروه فى العواصم ، ويصادروه فى الأندية ، ويضايقوه فى المنازل ، ويحولوا بينه وبين الشعب ، قد انقلبوا — بأى معجزة لا أدرى — فصاروا زينة لمجده وقوة لوفده وحراساً لمبدئه !

وكان بازاء الباشا المفكر طالب صادق الحدس ألمعى الفراسة ، لا يزال على وجهه الأبلج أثر من عِصِىّ الشرطة وبنادق الجند ، فرأى بين الحى المستذل الضارع ، وبين الميت المتجبر الشامخ ، عبرة من عبر الدهر ، وحكمة من حكَم القدر ؛ فهمَّ يصوغ من هذا المعنى هتافاً له ولرفاقه ؛ ولكنه تذكر أن الوطنى لا يحقد ولا يشمت ولا ينتقم ، فاكتفى أن يقول للزعيم الرجيم فى نفسه : لقد أدركت بعد الأوان أن المجد خير من الحطام ، وأن الشعب أبقى من الحكومة ! لقد بلغت كل عالٍ غير المجد ، وربحت كل نفيس غير الشرف !

* * *

ذلك سعد مثال الزعامة الحق يا نواب الأمة ! كان فى مماته كما كان فى حياته موضع القداسة منها وموطن الرجاء فيها ، لأنه أول مصرى حكمها بأمرها ، وساسها برأيها ، ونقلها من نظام القطيع إلى نظام الشورى ، وحول خزانتها من المتاع الخاص إلى المتاع المشترك ، وجعل العلاقة بين الأمة والحكومة « علاقة الجندى بالقائد ، لا علاقة الطائر بالصائد »

كان سعد من الشعب وظل طول عمره مع الشعب . تجبر ، ولكن على طغيان الثروة ؛ وتكبر ، ولكن على صاف المجد . أما علينا وعلى أمثالنا من سواد الناس فكان كالأخ العطوف والوالد الحدِب

بهذه السيرة الجيدة فى الحياة يقتدى أصحابه البررة ؛ وبهذه العقلية السليمة فى الحكم يسير خليفته الى الفوز ؛ وبهذه الصفحة المشرقة فى التاريخ يضع سعد للخاصة دستور الزعامة ، ويضرب للعامة مثل البطولة ؛ وبهذه المنزلة الفريدة التى نزلها من شعبه يتولد فى النفوس الشابة الرغيبة طموح المظمة ، فيسمون لها بالحق ، ويتنافسون فيها بالكفاية

هاتان سبيلان واضحتا المعالم بيّنتا الحدود فى سياسة الأمة . أدت أولاهما بسعد إلى حياة الموت ، وأسرعت أخراهما بفلان إلى موت الحياة ! فهل لأكياس الناس بينهما خيار ؟

احمد حسن الزيات

ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المــازنى

(تنبيه — كل ما هو مكتوب هنا متخيل . وأنا يوافقنى ويلائم مزاجى أن أجعل الكتابة على لسانى)

— ٣ —

سألنى صاحبى وهو يجلس : « إلى أين إن شاء الله ؟ »

قلت : « يا صاحبى ! العجلة من الشيطان . اجلس أولاً ، وتناول — ثانياً — شيئاً ، ثم سل ما بدالك بعد ذلك . على أنى أستطيع أن أريح فؤادك القلق ، فأقول لك إنا ذاهبون إلى القناطر الخيرية ؛ فهل ارتاح قلبك يامولاى ؟ »

فصاح بى وهو يخرج السيجارة : « القناطر ؟ ... ماذا أخطرها ببالك ؟ ... وماذا تصنع هناك فى هـذا الحر ؟ ... شىء غريب ! »

قلت : « يا أخى إنك تفاجأ بالخبر فتستغربه ، أما أنا فقد أطلت التفـكير فى الأمر ، وعرضت لى آراء شتى نفيتها واحدا بعد واحد ، حتى استقر رأيى أخيرا على القناطر »

قال : « ولـكن الجو حار الآن ... الســاعة العاشرة ، وسنشتوى هناك ؛ وأين يمكن أن نجد طعاماً أو شراباً ؟ »

قلت : « لعلك تظن أن القناطر صحراء سينا ... ومع ذلك لا تخف أن تجوع ، فقد أعددت لمعدتك كل ما تحتاج اليه من طعام و ... »

قال : « ولـكنى رأيت السيارة ونظرت فيها فلم أجد شيئاً ، وأخشى أن تـكون — كعادتك — معتمداً على أنها مدينـة عظيمة مقصودة من الناس ، ثم نذهب فلا نجد شيئاً »

قلت : « بل ستجد كل شىء . والآن دعنا من حديث المعدة واسمع : إذا رأيت منى ما تنكر ، أعنى ما يخالف المألوف من عاداتى فرجائى اليك أن تذكر قول الشاعر :

إن من ساءه الزمان بشىء ـ لحقيق إذن بأن يتسلى

« فهل أنت لبيب تـكفيه الاشارة أم لا بد أن ... ؟ »

وفى هذه اللحظة أقبلت الفتاة — أم ترانى لم أخبر القارئ أن فتاة كانت ستقبل ؟ ؟ على كل حال ... المهم أنه — أعنى القارئ — قد عرف أن فتاة قد أقبلت ، ولا شك أنه استنتج من قولى هذا أنها وسيمة — ولا أبالغ فأقول جميلة — وأن الموعد كان مرتباً من قبل . ونظر صديقى اليها ثم إلىّ وهز رأسه ووقف استعدادا لاستقبالها وتحيتها . وكان وجهه كالطماطم — أعنى أحمر جداً — وليس هذا لونه فى العادة ، وإن كان صحيح الجسم ، معافى البدن ، حسن اللون والشارة ؛ ولـكنه شـديد الحياء . فقلت للفتاة : « زوزو ... هذا صديقى الذى حدثتك عنه ؛ وفى وسعك أن تعديه صديقاً لك أيضاً .. هل جاءت ليلى ؟ ؟ »

قالت وهى تناوله يدها : « نعم ... وهى تنتظر فى الخارج »

قلت : « ولـماذا لم تدخل ؟ .. هل أذهب وأدعوها ؟ »

قالت : « كلا . إن معها الأشياء .... والأفضل أن نذهب الآن »

ومضينا إلى القناطر على مهل ، وكانت السيارة جديدة ، ولا بد أن أقتصد فى السرعة حتى تلين وتـكتسب آلاتها المرونة اللازمة وإلا فسدت وخربت بسرعة وقصر عمرها . وكانت زوزو وليلى تنظران إلى السيارات الأخرى التى تخطف إلى جانبنا وتتركنا وراءها فتتحسران . وكانت زوزو لا تفتأ تقول لى : « ألا يمكن أن ندرك هذه السيارة ؟ » وتشير إلى واحدة من السيارات الـكثيرة التى كانت تمرق كالسهم ، فأقول : « بالطبع نستطيع ، ولـكن الثمن باهظ . ثم إن العجلة من الشيطان ؛ وقد كنت قبل مجيئك ألقى درساً على هذا الصديق فى وجوب التريث وتحاشى العجلة . والظاهر أنك لست خيرا منه ولا أقل حاجة إلى مثل هذه الدروس التى أعطيها للناس مجاناً »

فتصيح بى : « دروس ايه وعجلة ايه ؟ ؟ . كلام فارغ ! ! كيف تترك هذه السيارات تسـبقنا ، مع أن سيارتك جديدة وجميلة ؟ »

فأقول : « أشكرك ـ بالنيابة عن السيارة . ولو كان لها لسان لأسمعتك المطرب المعجب من آيات شكرها وتقديرها لهذا الثناء الجميل ، ولـكنها كما تعلمين خرسـاء بكماء لا تحسن إلا أن تجرى »

فتقاطعنى معترضـة : « تجرى ؟ ؟ تقول تجرى ؟ ؟ إنها تزحف ! ! ألا ترى كيف سبقنا كل الناس ؟ .. هل تريد أن نصل إلى القناطر غداً ؟ »

فأتوكل على الله وأجازف بمستقبل السيارة وأعدو فى سرى

الشبان الذين يكونون مع الفتيات فينطلقون كالقنابل فتتحطم سياراتهم ، وقد يلقون هم حتوفهم ؛ فإن وجود فتاة مع السائق يغريه بإهمال ما يشير به العقل والحكمة . وقد أركبت فتيات كثيرات فلم أر منهن واحدة ترتاح إلى البطء ، وأحسب السبب أن السرعة مظهر من مظاهر القوة وأن السبق غلبة ، والمرأة تعجب بالرجل القوي السباق ، ولا تعجب بالرجل الضعيف الواني ، وهي لا تدخل في حسابها أن هذه سيارة وأن المعول عليها لا على الرجل ، وأن الذنب يكون ذنبها إذا قصرت وكانت بطيئة أو ضعيفة . وإنما كل ما تفكر فيه وتعنى به أن معها رجلاً ، وأن رجلها هذا ينبغي أن يكون الأقوى والأبرز والأسرع والأبرع ، إلى آخر ذلك . وهو عندها مسئول عن السيارة التي لم يصنعها . ولعل منطقها أنه اشترى سيارة ، فلماذا لم يشتر سيارة قوية سريعة ؟؟ وقد يكون قليل المال ولكن هذا لا ينهض عذراً له ، إذ لماذا يكون قليل المال ؟ ؟ وقد تكون السرعة بغيضة اليه ، ولكن الأمر يرجع إلى تقديرها هي لا إلى تقديره ، ولا إلى ما يؤثر وما يكره . وإذا كان لابد أن يتوخى ما يشير به مزاجه ، فلماذا يستصحب امرأة ؟ ؟

من أجل هذا اضطررت أن أسرع على خلاف ما يقضي به الواجب والحزم وإلا ساء رأي صاحبتي فيّ ، ومن الذي يسره أن يسوء رأي المرأة فيه ؟ ؟ ولاسيما امرأة تكون معه ويكون همه في هذه اللحظة على الأقل أن يرضيها .. وأدركنا بضع سيارات سبقناها ففرحت وأشرق وجهها وانبسطت أسارير محياها وكثر ضحكها — بل ضحكهما — بعد التقطيب والوجوم والاعتراض ، وصارت كلما مرقنا بجانب سيارة تصفق وتصيح « هيه ! ! » على سبيل الاعجاب بالسيارة التي هي فيها — أي الاعجاب بنفسها ، فإن إعجاب المرأة بشيء يكون لها مظهر لاعجابها بنفسها هي — والشماتة بالمسبوق والتعيير له والتحدي أيضاً ؛ والمرأة إذا أعجبت برجل جعلت وكدها أن تتحدى الرجال به على صور شتى بعضها أخفى من بعض . وما أكثر ما يكون استمرار إعجابها به رهناً باستمرار فوزه على الأقران وغلبته لهم فيما تورطه فيه

وبلغنا القناطر بعد نصف ساعة ؛ وكانت هذه أول مرة تراها فيها فأقبلت على تسألني عن كل ما تأخذه العين هناك وجعلت أنا أحيلها على صديقي لا تفرغ للسير ومآزقه في هذا الزحام الشديد حتى صرنا عند أول البساتين ، وكانت الإحالة على صديقي تغضبها لتوهمها أن ذلك مبعثه الملل أو الاعراض ، ولا ملل ولا إعراض مني وإنما هي مشاغل الطريق ؛ غير أن المرأة قل أن تقدر ذلك لأن خواطرها كلها دائرة حول نفسها وشخصها ، وهي تفسر كل شيء بأنه صادر عن حب أو كره ، وعن رغبة أو زهد ، وعن إقبال أو انصراف وإعراض ، وعن ارتياح أو ملل وسآمة

وقال لي صاحبي ونحن ندخل البساتين والفتاتان أمامنا : « والآن قل لي ماذا ساءك من زمانك ويوشك أن يخرج بك عن طورك ؟ »

قلت : « يا أخي إني شاكر لك — وأنت تعلم صدق — هذه العناية بالاطمئنان عليّ ، ولكني لو أفضيت إليك بهذا السر لما بقيت له لذة تخفف ألمه . انتظر حتى يفتر كل شيء — الألم واللذة جميعاً — فلا يعدو الكلام حينئذ أن يكون حديثاً عن شيء مضى ولا يكاد يعنيني »

فهز رأسه ومضى عني إلى الفتاتين

وظللت طول النهار أضحك وألعب وأثب وأجري وآكل وأشرب وأرسلت نفسي على سجيتها — وإن كان ينقصني أن أعرف أن الخفة من سجاياي — وخلعت ثوب الاحتشام ورحت أكلم من لا أعرف وأدعو إلى طعامنا كل من يمر بنا — رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً — وأبدأ بالحديث من لم أر وجهه إلا في ذلك اليوم ، وأخطف الكرة ممن يتقاذفونها ، وأجر رِجْلَ هذا ، وأشد أذنَ ذاك ، وأفعل ما يفعل الأطفال عادة إذا شجعتهم فأنسوا منك الارتياح إلى عبثهم ، حتى ضج صاحبي وضاق صدره ولم يعد يطيق هذا الخُلُقَ المظلم الذي حف بنا واندمج فينا وشاركني وشاركته في اللعب والضحك والجري . فركبنا زورقاً صغيراً ؛ لكن هذا لم ينجه ولم يمنع أن أمضي فيما وطنت النفس عليه في ذلك اليوم ، فقد كانت هناك زوارق أخرى فصرت أدنو بالقارب منها حتى أحاذيها ، ثم أروح أعابث من فيها ، فنفد صبر صديقي وأمر النوتي أن ينأى بنا عن الخلق جميعاً فاستلقيت على ظهري وأغمضت عيني وتظاهرت بالنوم

ولكني لم أنم ، وإنما كنت أحدث نفسي وأسألها عن جدوى هذا الذي صنعت ؟ أتراه أنساني شيئاً أو أذهلني عما بي ؟؟ ولم يسعني إلا أن أعترف بأن كل ما صنعت كان عبثاً . فقد كانت ذات الثوب الأرجواني ماثلة أبداً أمام ناظري لا تبرحه ولا تفتر صورتها التي تلازمني ، وكنت أراها في كل من أرى وما تأخذه

العين ، فأنا حين أنظر إلى واحـدة من هاتين الفتاتين لا أراها وإنما أرى ذات الثوب الأرجوانى ، ويفتننى منظر فأقول لمن معى : « أنظروا ... ما أبدع هذا » ويكون الذى يفتننى منه ذات الثوب الأرجوانى التى تبدو لى فى إطار من هـذا المنظر . ولمـا ركبنا الزورق كان يخيـل إلىّ أنها سابحة فى المـاء كرائس البحر ، وما سمعت ضحكة ناعمة إلا قلت لنفسى لعل ضحكتها أرق وأسحر

وأعجب من هذا أنى كنت أجـدنى وأنا أضاحك الناس وأحدثهم وألاعبهم وأسابقهم أفكر فيها وأسأل نفسى عنها — وكان حسبى ما أنا فيه مما يستغرق جهد النفس — وأقول — فى سرى وبينى وبين نفسى — هل أنت تحبها ؟ ؟ أواثقٌ أنت أن هذا هو الحب . . فتجيبنى النفس أن نعم لا شك فى ذلك ، فأكرعليها معترضاً على هذا التأكيد وأقول : ولـكنك لا تعرفها .. لا تعرف حتى اسمها .. وما رأيتها إلا عن بعد فماذا تحب منها .. لا تستطيع أن تدعى أنك واجد فيها غير صورة جسمية هى التى تتراءى لك من هـذا البعد . ولعلها لو دنت قليلاً لطالعك منها ما لا ترتاح اليه ، فالأرجح أنك تحب منها صورة ألـفتها أنت من الألوان التى استعرتها منها . ولا شك أنك زدت هذه الألوان قوة وأضفت اليها من خيالك . ولو أنك كنت مصـورا وحاولت أن ترسم لها صورة من ذاكرتك لما استطعت أن تثبت شيئاً من ملامحها ، ولجاء الرسم لمخلوق من مخلوقات خيالك أنت ، وإن كان لا يخلو من شبه بذات الثوب الأرجوانى . فحتى الصورة المادية — أو الجسمية — التى تبدو لك ليست ثابتة ولا مقررة فى نفسك ، لأن الصور لا تثبت خطوطها وألوانها على مثل هذا البعـد . ومن السهل أن تُمَـوَّه عليها وتمحوها صور أخرى تكون أثبت لأنها تكون أقرب فأقدر على التأثير وأنفذ بسبب القرب إلى أعماق النفس والاستقرار فيها . ولو أن صورة ذات الثوب الأرجوانى كانت عميقة الأثر فى نفسك ومنقوشة بألوانها وخطوطها المميزة لها على صدرك ، أكنت تظن أن فى وسعك أن تتسلى كما تتسلى الآن بهذه الفتاة أو تلك ممن تعرف ؟؟ أكان يمكن أن ترتاح الى وجود غيرها وإن كنت تزعم أنك تتسلى ؟ ؟ لا ياصاحبى !.. وحسبك أن تسأل نفسك بأى شىء تذكرها . . ماذا فى نفسك منها غير صورتها فى النافذة كما تستطيع أن تراها على بعد ثلاثين مترا ! ؟ لو كنت كلمتها !! لو كنت رأيت ابتسامتها ونظرة عينيها ومنطق وجهها وتعبير محياها ، وكيف تكون إذ ترق وتحنو ، وحين يسرها شىء ، وعند ما تبدو عليها اللهفة أو الجزع أو الاضطراب ، والزهد فى شىء والرغبة فى آخر ، وحينما تتدلل أو تسخو ، وإذ تضحك أو تتجهم !! لو كنت رأيت شيئاً من ذلك لأمكن أن تقول إنك عرفتها وأحببتها ، ولـكان لحبك لها غذاءٌ ومددٌ من ذكريات هذه الحالات المختلفة .. أما الآن فبماذا يتغذى حبك ؟ ؟ على أى شىء يعيش ؟ ؟ بأى شىء تذكرها إذا غابت عنك . . . بصورة هى أشد غموضاً من الرسم الفوتوغرافى وأخفى منه تعبيرا ؟ ؟ وهى مثلك ... أتزعم أنها توليك عناية واهتماما ، وأنها تفكر فيك ، وأنها لا تفتأ تنظر اليك ؟ فما يدريك أن هذا ليس من باب التطلع ومن قبيل الاستغراب أو اطاعة لرغبة نشأت فى الوقوف على حالات غريبة تبـدو من شخص يستحق عناية على كل حال لسبب من الأسباب التى تدعو الى العناية ؟ ؟ هه ؟ ؟ وهبها — جـدلا — أحبتك كما تظن أنك تحبها فان شأنها كشأنك ! . . ولعلـكما لو تلاقيتما لـكره كل منكما صاحبه ، أو نفر منه ، على الأقل ، أو إذا شئت ، لفتر ما يجده من الحب ، إذ كان لا أساس له إلا الصور الغامضة التى ينقصها البيان والتأثير الذاتى المباشر . . ويظهر أنها مثلك واسعة الخيال . . . وشبابها هو عذرها إذا جمح خيالها . . فانها غريرة ساذجة لا تعرف الدنيا . وأكبر الظن أنها لم تجرب الحب فهى لهذا شديدة الحنين اليه . ولـكن أنت ؟ . أنت ؟ . أنت المجرب الذى عرف المرأة ودرس وخبر كل ما يسع الرجل أن يخبر .. كيف يمكن أن تخدع نفسك وتغلط على هذا النحو فى فهم شعورك ؟ إن هذا منك مضحك !

وقد اعترضت على نفسى وأبيت أن أسايرها إلى حيث تريد فانى أعرفها خبيثة شديدة المغالطة ، وقلت لها : « كيف تزعمين يا نفسى أن لا شىء عنـدى من الذكريات أغذى بها حبها ؟ ألم تسمعنى صوتها فى ضحكة فضية ؟ (واها لهذا الرنين) أليست تبدو — أكثر الوقت — فى الثوب الأرجوانى الذى تعرف أنى أحبه ؟ أتسألين يا نفس كيف عرفتْ أنى أحب هذا الثوب ؟ . قبحك الله ! . وما شأنك أنت ؟ . أعرف أنها تعرف والسلام ! وأنا على يقين من أنها تعرف . وبينى وبينها لغة لا تحتاج الى الـكلام ولا الى النظر . . . لغة أفهمها وتفهمها وإن كان كلانا معرضاً عن صاحبه ، لأنها ذكية — مثلى ولا فخر — فهى تدرك أنى حين أكف عن النظر اليها ، يلتفت قلبى إليها ، وإن كانت عينى قد تحولت عنها لسبب غير ارادة النفس وهوى الفؤاد .. ولا يخفى

عليها أنى حين أنظر الى ترام عابر أو سيارة تخطف فى الطريق أو زهرة مارة ، فانى إنما أفعل ذلك لأنى أخاف عليها الناس أن يلهجوا بنا . وليبق حبى وحبها كنزاً لا يعرف سرَّه غيرُنا . . ولا يشاركنا فيه — بالعلم — ثالثٌ . ولست أكلمها — هذا صحيح — ولا أنا أشير اليها ، لأنى أعرف أنها تعرف أن الاشارة تحصيل حاصل . وما ثلاثون متراً بيننا ؟ ؟ إن قلبها كتاب مفتوح ؛ وهل تستطيع الزهرة الأرجة أن تكتم الشذى ؟ ؟ . نعم إنها حريصة كيسة ، ولكنى مع ذلك أعرف حين أراها مقطبة عابسة أن قلبها يضحك وإن كانت نظرتها صارمة الجد . . ولقد بدت منها إشارات تعمدت ألا أفهمها — لا لأنى لم أفهم بل لأنى خفت أن تكون قد صدرت عنها عفواً وعلى غير عمد ، فأكون قد تسرعت وأسأت التأويل . ولا أقول ما هذه الاشارات فانى حريص على الاستئثار بها والانفراد دون خلق الله بمعرفتها . وما أكثر ما أذكر من حالاتها حين تكون وحدها وحين يكون معها غيرها .. وهل أنسى أنها حين تغضب علىّ لبلادتى وبطء فهمى تذهب فتلبس ثوباً غير الأرجوانى ؟ ؟ هل أنسى كيف تلف على شعرها شريطاً وتترك خصله الوطفاء مرسلة على جانبى محياها الصابح يعبث بها النسيم فتهز رأسها لتردها وتصلح منها وتسويها ؟ ؟ . هل أنسى كيف تجلس وفى يدها الكتاب — على ركبتها — وظهرها إلىّ وهى مع ذلك ترانى وتعرف أنى ناظر إليها ومعجب بها ومتلهف على نظرة منها ؟ ؟ هل أنسى كيف تكايدنى وتهيجنى وتثير نفسى لتمتحن حبى وترى ما ذا يكون من أثر ذلك فى نفسى ؟ ؟ وما أعذب مكايدتها وأحلاها ! ! . وما أجهلها بى إذا كانت تظن أن شيئاً من ذلك يثيرنى ويغضبنى ! فانى فى وسعى — دائماً — أن أضع نفسى فى مكان الغير ، وأن أتصور ما يُستقَلُ أن يصدر عنه وأن أقدر البواعث على ما يبدر منه فاعذره فى الأغلب . . والحق أقول إنى أراها مقصرة فى مكايدتى لا مسرفة . ولا أنكر أنه يعز علىّ أن تغيب عن عينى ، ولكنى أنا مضطر أن أغيب عنها وأنقطع عن النظر إليها ، وعزائى أنى لا أنعم بأكثر من مرآها وأنها لم تهبنى أكثر من منظرها من بعيد ، وأنها لم تولنى ما أتحسر على فقده إذا فقدته ؛ وما دام هذا هكذا فانى أستطيع أن أراها بعين الخيال كما أراها بعينى التى فى رأسى . ولو أنى كنت مكانها لعرفت كيف أكايدها ، فلنحمد الله الذى خلقنى رجلاً ولم يخلقنى امرأة .

ولو شئت لعذبتها ولكنى أوثر الترفق — بطبعى — وإن كنت لخبرتى بالطبيعة البشرية من أعرق الناس بوسائل التعذيب . وأنا أسأل نفسى دائماً « لماذا أعذبها وأنا أحبها ؟ » ، وماذا تستحق التعذيب وهى لو وسعها أن ترضينى لأرضتنى ؟ لا شك فى ذلك ، وصحيح أنه يسعها أكثر مما تبدى ولكنى لا أحب أن أعجل باللوم . . ومن يدرى ؟ . لقد علمتنى حياتى أن اليأس سخافة ، وأن العجلة من الشيطان ، كما أقول لصديق ، وأن طول البال ينهل الأمل ، كما يقول المثل العامى ، وأن الغضب حماقة ، وأن العتاب عبث ، وهو فى النهاية يفتر الحب ، وأنا أحب هذه الارجوانية الثوب وأحب أن يطول حبها لى ، لأنى أعرف من نفسى أن حبى لا يفتر وإن كان فى وسعى — بفضل رياضتى لنفسى — أن أستر ناره بالرماد . كلا لن أكايدها وسأصبر عليها وأُملى لها وأمهلها لأرى ما يكون منها ولأختبر مبلغ حبها فانى على الرغم من الحب أوثر أن أقدّر لرجلى قبل الخطو موضعها . فاذا رأيت منها ما يطمئن خرجت عن هذا التحفظ الثقيل عليها وعلى أيضاً وإلا فانى قادر على خنق هذا الحب ولو كلفنى تقليع أحشائى من جذورها

فى هذا كنت أفكر ، وبهذا كنت أناجى نفسى ، وأنا ألاعب هذه الفتاة وتلك وأضاحكهما وأسابقهما وأسخط صديقى على بترك الاحتشام الذى ألفه منى حتى صار يستغرب منى الابتسام ، وليس أعجب من اشتغال النفس بأمرين فى وقت واحد . ولكنى لا أكتب مقالاً فى علم النفس وإنما أسوق حكاية وأصف حالة فيحسن أن أقتصر على ذلك

وقد عدت من القناطر بغير ما كنت أرجو أن أفوز به . نعم لهوتُ وضحكت وبدوت لمن لا يعرفنى كأسعد ما يكون إنسان . ومن ذا الذى يمكن أن يسمع ضحكتى ويرى وثبى وقفزى ويرتاب فى أنى سعيد موفق ؟ ؟ ولكن صديقى كان يعلم أن فى صدرى شيئاً أكتمه ، وأن ما أنطوى عليه ليس مما يهون حمله ، وإلا لما التمست التلهى ونشدت التعزى ، غير أنه كان على هذا يجهل — ومن أين يعرف ؟ — أن فى جوفى ناراً مضطرمة من القلق والشك والحيرة والاضطراب وقد خرجت من الحوار الذى دار بينى وبين نفسى بالشك وباعتقاد أنى جاهل ما فى ضمير الفؤاد — أو على الأقل أن الأمر فيه نظر كبير فالحق أن معرفة النفس أشق المعارف وأعسرها مطلباً ..

ابراهيم عبد القادر المازنى

حلم الدولة اليهودية
والوطن القومي اليهودي
لمؤرخ كبير

مضى اليوم أكثر من شهرين منذ بدأت فلسطين ثورتها القومية المضطرمة؛ وقد حسب الاستعمار يوم نشوبها أنه أمام حركة تذمر عادية يسهل قمعها بالوسائل المعتادة فاذا به أمام ثورة قومية عامة، وعزم راسخ على النضال؛ ومعركة حياة أو موت من شعب يؤثر السقوط في ميدان الكفاح الشريف، على الاعدام البطيء المنظم

ولقد بسطت (الرسالة) قضية فلسطين في مقال سابق، بين فيه كاتبه مبلغ ما ترزح تحته هذه الأمة الصغيرة الباسلة من صنوف الاستعباد المرهق، السياسي والاقتصادي والاجتماعي، سواء من جانب السياسة البريطانية التي قضت باختيار فلسطين منزلاً للوطن القومي اليهودي أو من جانب الصهيونية التي تعمل لتوطيد دعائم هذا الوطن اليهودي بكل ما وسعت من وسائل الضغط المالي والثقافي متمتعة في جهودها برعاية السياسة البريطانية ومؤازرتها

وإذا كنا لانستطيع الآن أن نتنبأ عما تفيده السياسة البريطانية من هذا الدرس، أو عما تزمع أن تتخذه من الخطط الجديدة في المستقبل نحو فلسطين، فانا نستطيع من جهة أخرى أن نقول إن هذه الثورة المنيفة التي قامت بها فلسطين سيكون لها أثرها العميق في صدع أركان الوطن القومي اليهودي، وفي التدليل على ما في صياغته وتكوينه من أوجه الخيال والعوامل المصطنعة التي تتعارض مع الحقائق التاريخية والعملية

إن إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، هو الخطوة العملية الأولى في برنامج الصهيونية الحديثة؛ وهو التمهيد لانشاء الدولة اليهودية التي هي غاية الصهيونية الحقيقية؛ واليهودية تحلم بانشاء هذا الوطن القومي وتعمل له منذ أكثر من قرن؛ ولكن برنامج اليهودية النهائي لانشاء الوطن القومي لم يوضع إلا في أواخر القرن الماضي، حيث بدأ زعماء اليهودية يجمعون المال لانشاء المستعمرات في فلسطين ويبذلون جهودهم لدى الباب العالي، وحيث أذاع تيودور هرتسل، رسول الصهيونية الحديثة وروحها المضطرم، رسالته الشهيرة عن الدولة اليهودية: « Die Judenstaat » وهرتسل كاتب وصحفي يهودي نمسوي، ظهر في أواخر القرن الماضي في ڤينا بكتاباته الملتهبة في سبيل القضية اليهودية، فالفت صيحته أفقاً صالحاً لأن معظم الدول الأوربية كانت تجيش يومئذ بعوامل الخصومة السامية، وتلقى اليهودية الاضطهاد المنظم في كل مكان. وفي كتاب « الدولة اليهودية » يعرض هرتسل فكرة الوطن القومي عرضاً قوياً، ويرى أن يتخذ هذا الوطن صورة دولة يهودية في فلسطين تكون تحت سيادة الباب العالي، وتؤدي له الجزية، وتكون البقاع المقدسة منطقة مستقلة ذات نظام خاص؛ فصادفت الدعوة نجاحاً عظيماً بين أقطاب اليهودية في أنحاء العالم كله، وانتظمت الحركة تحت لواء هرتسل وزعامته. وفي أغسطس سنة ١٨٩٧، عقد مؤتمر يهودي عام في بازل (سويسرا) برياسة هرتسل، ووضع فيه برنامج الصهيونية الرسمي، وعرفت غاياتها ووسائلها على النحو الآتي:

« تسعى الصهيونية لتحقق للشعب اليهودي إنشاء وطن قومي في فلسطين يتمتع بالضمانات التي يقررها القانون العام، ويرى المؤتمر أن يتذرع بالوسائل الآتية لتحقيق هذه الغاية:

(١) ان يشجع استعمار فلسطين بواسطة الزراع والعمال والصناع

(٢) ان ينظم العالم اليهودي باسره وان يحشد في الجماعات المحلية أو العامة طبقا لقوانين البلاد المختلفة

(٣) أن تقوى لدى اليهود عواطف الكرامة القومية والاعتزاز بالجنس

(٤) ان تبذل المساعي اللازمة للحصول على التصريحات الرسمية الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية

هذا هو هيكل الصهيونية وبرنامجها العملي؛ وقد تطورت ظروف العالم السياسية منذ عصر هرتسل ومؤتمر بازل، واستطاعت الصهيونية بعد جهود ومحاولات عديدة أن تاتي فرصتها في الحرب الكبرى، وان تظفر بتحقيق الشطر الأول من برنامجها بانشاء الوطن القومي في فلسطين، ولكن لا تحت سيادة الباب العالي، وانما تحت السيادة البريطانية، وذلك بمقتضى عهد بلفور الذي قطعته الحكومة البريطانية على نفسها في نوفمبر سنة ١٩١٧

وقد مضى على قيام الوطن القومي اليهودي في فلسطين زهاء تسعة عشر عاماً، وأصبح في ظل الانتداب البريطاني، وطبقاً

لنصوص الانتداب ذاته ، من الوجهة الدولية ، نظاماً شرعياً معترفاً به من جميع الدول الكبرى ؛ وفى هذه الفترة بذلت اليهودية جهوداً جبارة لاقامة هذا الصرح القومى الذى تحلم به منذ الآماد ، فتدفقت الهجرة اليهودية إلى فلسطين حتى أصبح عدد اليهود فيها زهاء نصف مليون ، وأقيمت المستعمرات والمشاريع اليهودية الضخمة فى جميع انحاء البلاد ، وانشئت مدينة تل أبيب لتكون عاصمة الوطن الجديد ، وأقيمة جامعة عبرية لتعمل لأحياء التراث اليهودى الروحى والفكرى ؛ وعلى الجملة فقد استطاعت اليهودية أن تحقق فى فلسطين كثيراً من المظاهر المادية والاقتصادية والاجتماعية للوطن القومى اليهودى

ولكن هذه المظاهر على ضخامتها وقوتها تبدو اليوم ضئيلة واهنة أمام ثورة الشعب الذى يقام هذا الوطن فى أرضه ، وعلى أنقاض حقوقه وموارده ؛ فاليوم يهاجم الوطن اليهودى ، ويطعن من كل صوب ، وتقوض مستعمراته ومنشآته ، وتعطل جميع مرافقه ومصالحه ، وتشل جميع حركاته ومعاملاته ، ويكاد يغدو فى حالة حصار مطبق ؛ كل ذلك تحت بصر القوى الاستعمارية التى هرعت إلى فلسطين لحمايته . وقد شعرت الصهيونية من قبل غير مرة بخطر الفورات القومية الفلسطينية على صرحها ، ولكنها لم تكن تتصور أن الخطر قد يبلغ هذا المدى من الروعة ، أو أن هذه الأمة العربية الصغيرة يمكن أن تضطلع بمثل هذا الكفاح الشاق الجلد ؛ وإذا لم يكن ثمة ريب فى أن القوى الاستعمارية الناشئة ستتغلب فى النهاية على الكفاح القومى الباسل ، فانه لا ريب أيضاً فى أن الوطن القومى اليهودى سيخرج من المعركة مثخناً بالجراح ، وقد وهنت قواه المادية والمعنوية ، وزادت شكوك الصهيونية وهواجسها نحو المستقبل الغامض

والواقع أن فكرة الوطن القومى اليهودى لم تكن بنت القرن التاسع عشر فقط ، ولكنها ترجع إلى أقدم العصور ؛ فمذ حطمت مملكة أورشليم اليهودية منذ نحو ألفى عام ، وشتت اليهود فى أنحاء الأرض ، تحلم اليهودية بالعود إلى أرض إسرائيل ؛ ومع أن الجماعات اليهودية قد استقرت فى الأراضى التى استوطنتها مدى القرون ، غير أنها لم تندمج قط فى الشعوب التى عاشت بين ظهرانيها ، ولبثت تكون دائماً مجتمعات مستقلة . وترجع اليهودية تلك الظاهرة إلى نظم الاضطهاد والعزلة التى كانت تفرض على اليهود ، وحرمانهم من الحقوق السياسية والمدنية طوال القرون ، حتى أنهم كانوا يرغمون على السكن والاحتشاد فى أماكن خاصة تسمى (الجيتو) . ولكن الحقيقة أن اليهودية هى التى اختارت لنفسها هذه العزلة ، وهذا الاستقلال الخالد عند الشعوب التى استقرت فيها . ذلك أن اليهودية كانت وما زالت تعتبر دائماً أن الدين هو جامعة الجنس بين اليهود ، وأن اليهودية هى ملاذ الشعب اليهودى أينما حل ، وبعبارة أخرى إن الدين والجنسية بالنسبة لليهود هما وحدة لاتتجزأ . وهذا هو الخطأ الخالد الذى وقعت فيه اليهودية ، والذى أثار عليها فى كل العصور ريب الشعوب وحقدها ، والذى هو فى الواقع أكبر عامل فى تحريك الخصومة السامية . وهذا هو الأساس الخاطئ الذى تبنى عليه فكرة الوطن القومى الذى يجتمع فيه اليهود من جميع الجنسيات واللغات

وقد فطن إلى هذا الخطأ الذى هو عنوان التعصب الخالد بعض أقطاب اليهودية ، وحاولوا أن يدعوا إلى فصل الدين عن الجنسية ، وإلى تشبه اليهود بسائر الشعوب فى اعتبار الدين مسألة روحية محضة لا علاقة لها بالجنسية ؛ دعا إلى ذلك الفيلسوف الألمانى اليهودى موسى مندلزون فى القرن الثامن عشر ، ورأى أن تتخذ القومية اليهودية صبغة محلية ، فيغدو اليهود من أبناء البلد الذى استوطنوه مع احتفاظهم بتراثهم الروحى ؛ وآزر مندلزون فى هذه الدعوة بعض أكابر المفكرين الألمان من غير اليهود مثل الكاتب الشهير لسنج وغيره ؛ ولكن هذه القومية المعتدلة التى أملى بها جو التسامح الذى نعمت به اليهودية يومئذ لم تلق كبير تأييد ، ولم يطل أمدها ، واستمرت الفكرة الدينية القديمة على قوتها وحدتها

والوطن القومى اليهودى يقوم كما قدمنا على نفس هذا الأساس ، أى على جامعة الدين ؛ وهذه أكبر نقط الضعف المعنوى فى بنائه ، فالقوميات والشعوب الحديثة لا تقام باسم الدين ؛ ولم يبق الدين فى بلد من بلاد العالم المتمدين أساساً للدولة ؛ ثم إن هذا الضعف المعنوى فى الوطن اليهودى يتخذ مظاهره المادية ، ففى فلسطين يجتمع الآن يهود من جميع الجنسيات والثقافات واللغات والنزعات السياسية ، ومن المحقق أن العمل الاجتماعى المتناسق بين هذه العقليات والبيئات المتباينة صعب التحقيق . والواقع أن معظم اليهود المهاجرين يفدون على فلسطين لبواعث اقتصادية قبل كل شئ ، ولكى يحققوا لأنفسهم بعض وسائل العيش التى يفتقدونها فى بلادهم الأصلية ؛ ومنهم من يفد فراراً من الاضطهاد الذى يفرض

عليه؛ وهنا نستطيع أن نقول إن الوطن القومي الحديث كان وليد الخصومة السامية (حركة العداء ضد اليهود) أكثر من أي عامل آخر؛ وهذا أيضاً عامل مصطنع في بنائه؛ وإذا كان الوطن القومي قد أحرز في فلسطين شيئاً من النجاح والتوسع من حيث الاحتشاد والاستثمار الاقتصادي، فذلك يرجع قبل كل شيء إلى الأموال الطائلة التي تستثمرها الرأسمالية اليهودية؛ والرأسمالية لا تعرف وطناً ولا ديناً، ولا تعرف إلا الفوائد والمغانم المادية

والخلاصة أن الوطن القومي اليهودي يقوم على عوامل وأسس مصطنعة يكشف الزمن عن ضعفها شيئاً فشيئاً؛ والزمن وحده كفيل بأن يبين لليهودية أن مشروع الوطن القومي والدولة اليهودية إنما هو حلم عظيم جاشت به أذهان بعض المتعصبين من أقطاب اليهودية ومفكريها، وأنه لا يمكن أن يعتبر بوضعه الحاضر أكثر من مشروع اقتصادي تؤيده الحراب البريطانية، فكل ما يحرزه من نجاح أو يصيبه من فشل يرجع إلى قواعد الاقتصاد المادية دون غيرها؛ وما جامعة الدين التي تستظل بها اليهودية، إلا طلاء السياسة، وهي أضعف من أن تقيم في عصرنا دولة أو وطنا

مؤرخ

حادثة فلسطين

الأستاذ علي الطنطاوي

... لئن كانت حادثة الحبشة فضيحة القرن العشرين، فان حادثة فلسطين – إن تمت – فضيحة الدهر، وعار يلحق كل من يقول: أنا انسان ...

بيد أن الحبشة إن غلبت علايينها وسلاحها وجيوشها، فان هذا الشعب الأعزل الذي لا يبلغ المليون الواحد لن يغلب على أرضه أبداً، لأن وراءه سبعين مليوناً من العرب، إن وراءه أربعمائة مليون من المسلمين، إن وراءه ألف معركة منها أجنادين واليرموك وحطين، إن وراءه القرآن الذي يقول عن اليهود: «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ» صدق الله العظيم؛ وكذبوا ... إن الذليل لا يعز، والمسكين لا يملك، والمغضوب عليه لا يفلح أبداً!

* * *

إن حادثة فلسطين، لو تدبرها العقل، وفهمها على وجهها لما رآها إلا ... «جريمة»: أبطالها طائفة من اللصوص، وشرذمة من الحراس، لصوص يتسورون الدار ليطردوا صاحبها، ويحتلوها ويشردوا أهلها، وحراس يعينون اللص على المالك وينصرون على الحق الباطل ...

ولكنّ الجريمة لن تتمّ: إن الأسد في العرين، وربّ الدار يعرف كيف يحمي الدار ... فيا أحفاد كعب بن الأشرف، وسلاّم بن أبي الحقيق، وعصماء وأبي عفك، نحن أبناء محمد بن سلمة، وعبدالله بن عتيك، وعُمَير بن عديّ، وسالم بن عمير ... فاذا أغنى عن أجدادكم – إذا هم كانوا أجدادكم حقاً – إذا أغنى عنهم ما لهم، أو دفعت عنهم حصونهم، أو نفعهم حلفاؤهم، وما حزّبوا علينا من أحزاب، أغنى ذلك عنكم:

«هوَ الذي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِيارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم من الله. فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين. فاعْتَبِروا يا أُولي الأبصار»

* * *

ولئن اشتدت اليوم الصيبة وعظم الخطب، فقد كانا يومئذ أشد وأعظم، يوم قامت أوربة كلها على قدم وساق، ثم سارت الينا بقضها وقضيضها، يحدوها التعصب الأعمى، وتسوقها عصا البغضاء والحقد والعداوة الدينية. فأفسدت البلاد وعاثت في الحرم، حتى إذا ظنت أنها قد ملكت وتمكنت، وبنت فأسست، وباضت وفرّخت: جاءها رجل واحد لحطم جيوشها في حطين، ثم ردّهم على أعقابهم خاسرين، ثم أخرجهم منها مذءومين مدحورين

أفعيينا بأوربة كلها، وعجزنا عنها حتى نعجز عن حفنة من شذاذ الآفاق ونفايات الأمم وعباد الدرهم والدينار؟ أم قد جفّ الدم الذي روّى عروق صلاح الدين، وماتت الأمة التي

أخرجته ، وعقمت النساء فلا يلدن شبيهه ؟ إن كل مسلم اليوم في فلسطين صلاحُ الدين ، وكل بقعة فيها حطين !

* * *

ضربت عليهم الذلة والمسكنة : فالذهب في صناديقهم والنظام جمعياتهم ، والريّ والخصب في أرضهم ، والسلاح في أيديهم ، والانكليز من ورائهم ، ثم لا يثبتون ساعة واحدة لهؤلاء العزل الفقراء . . . ولا يقدرون أن يقفوا في وجوههم ، ويرتجفون إذا سمعوا ذكر أسمائهم : « إِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وإِنْ يَقُولوا تَسْمَعْ لقولِهِمْ كأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُون كلَّ صَيْحَةٍ عليهِمْ » أهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يمشوا في الطرقات وحراب انكلترا تحميهم ، يستطيعون بعدُ أن يعدوا سدنة المسجد الأقصى وسادة فلسطين ، ويملكوها – وحدهم – رغم أنف المسلمين أجمعين ؟ ولو نفخ عليهم المسلمون أربعمائة مليون نفخة لطيروهم ، ولو مالوا عليهم لطحنوهم ، ولو بصقوا عليهم لأغرقوهم ، ولو صرخوا فيهم لقتلوهم ؟

أهؤلاء الذين ما عرفهم التاريخ إلا مغلوبين ، يتحرشون بمن لم يعرفهم التاريخ إلا غالبين منصورين ، ومن حكموا الدنيا فكانوا نعم الحاكمين ، وعلموا العالم فكانوا خير معلمين ؟

* * *

إن معهم وعداً ، وإن معنا لوعداً : معهم وعد بلفور . ومعنا وعد الله : « وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الذينَ من قَبْلِهِم ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ ، وليُبدلنَّهُمْ من بعدِ خَوْفِهِمْ أمنا »

ولكنّ الله يمتحن إيماننا وصبرنا واتحادنا وتعاوننا ، وينظر أنجاهد في سبيله بأموالنا وأنفسنا ، وننصر إخواننا ونكون في توادنا وتراحمنا كالجسد الواحد ، إذا تألم عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالحمّى والسهر ، أم قد فرقت بيننا السياسة ، وباعدت بيننا النعر ، ومزقتنا الأهواء والمطامع ، فأمسينا ننام في القاهرة ودمشق وبغداد على فرش الريش والديباج ، وإخواننا على شعفات جبال نابلس والقدس لا يغمض لهم جفن ، ونأكل الشواء والحلواء وإخواننا هناك قد لا يجدون ما يقوم بأودهم من الخبز ، ونبذر المال نقذف به إلى أوروبة ثمناً لهنات هينات ، فيصنعون منه مدافع تحصد إخواننا حصداً ، وبنادق تمزق صدورهم تمزيقاً ، وإخواننا لا يجدون ثمن الحاجات الضروريات ، ونلهو ونلعب آمنين مطمئنين ، وإخواننا في فلسطين قائمون على حد السيف ، بين النار والحديد ؟

فيا إخواننا في مصر والشام والعراق والحجاز والمغرب ، ويا إخواننا في الهند والصين وأينما بلغت مقالتي هذه . . .

إن الله جل وعز يقول : «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» فهل أنتم مؤمنون مسلمون بجوارحكم وقلوبكم ، مخلصون لله في أسراركم وأعلانكم ؟ أم أنتم مسلمون بالنسب والاسم وسجل الدولة ، لا تعرفون إلا أنفسكم ، ولا تبالون إلا بلذاتكم ، ولا تنظرون إلى أبعد من أنوفكم ؟

إذا كنتم مسلمين حقاً ، مؤمنين صدقاً ، تريدون أن ينصركم الله فانصروا فلسطين ما استطعتم ، انزعوا المال من أفواه عيالكم ، وأعناق بناتكم ، لتشتروا به حياة إخوانكم في فلسطين ، اسهروا الليالي تتسقطون أخبارها ، وتملون عليها ، أمسكوا عن لهوكم وأفراحكم فلا تنفرج لكم سنّ حتى تنفرج أزمتها ، اجعلوا قضية فلسطين ، قضية كل واحد منكم . . .

أما أنتم يا إخواننا في فلسطين :

فاصبروا وصابروا « وَلا تَهِنوا وَلا تَحْزَنوا وَأَنتم الأَعلَون إِنْ كُنتم مؤمنين . إِنْ يَمْسَسْكم قَرْحٌ فقد مسَّ القومَ قَرْحٌ مثلُه ، وَتلكَ الأيّام نداولُها بَيْنَ الناس ، وَليعْلَمَ اللهُ الّذينَ آمَنوا وَيَتَّخِذَ منكم شُهَدَاء ، وَاللهُ لا يحبُّ الظالمين ، وَليمَحِّصَ الّذين آمَنوا وَيَمْحَقَ الكافرين . أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الّذينَ جاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعلمَ الصابرين »

* * *

أما بعد ، فان حادثة فلسطين – ان هي تمت – فضيحة الدهر ، وعار على الانسانية ... ولكنها لن تتمّ بحول الله وقوته ثم بقوة المسلمين . . .

علي الطنطاوي

حماية الطالحين

بحث علمي اجتماعي

للأستاذ اسماعيل مظهر

في أواسط القرن التاسع عشر أصابت العلم هزة من تلك الهزات العنيفة التي تغير مجرى الفكر ، وتقلب آيات العلم بعد أن يخيل إلى الناس أن المعرفة قد قامت على قواعدها الرسيسة ، رأساً على عقب . ففي سنة ١٨٥٩ نشر العلامة شارلز روبرت دروين كتابه « أصل الأنواع » فأقام الحجة البالغة على أن الأنواع تنشأ في الطبيعة بعضها منظور عن بعض على مر عصور متطاولة ، وأن نشوء الحياة من فوق الأرض موغل في القدم

ولقد أقام دروين نظريته على ثلاث قواعد أولية ، هي التناحر على البقاء ، والانتخاب الطبيعي ، وبقاء الأصلح . أما التناحر على البقاء فاصطلاح مجازي يؤدي في أوسع مدلولاته معنيين : فاما أنه يدل على العلاقة القائمة بين الأنواع الحية العائشة في بيئة ما ، إذا ما اتجهت الأسباب العاملة على بقاء نوع إلى إبادة آخر أو إفنائه ، وإما أنه يدل على الجهد الذي يبذله الأحياء في سبيل الحصول على مقومات الحياة ، كمقاومة العوامل والمؤثرات الفنية للأفراد أو المبيدة للأنواع . أما الانتخاب الطبيعي فحصله أنه يبقي من أفراد الأنواع أو السلالات أقدرها على الحياة في بيئة ما وأن تفنى غير القادرة منها على البقاء . ولما كانت القدرة على البقاء وتخليف المثل ، انما ترجع إلى صفات حيوية تتأصل في الأحياء ، نشأ بالانتخاب الطبيعي تدريجياً على مر الأزمان سلالات وأنواع جديدة ممتازة بصفات معينة ثابتة . وقصد باصطلاح بقاء الأصلح أن الأحياء تتكاثر بنسبة رياضية . أي بنسبة ٢ : ٤ : ٨ : ١٦ وهكذا ؛ فاذا لم يهلك معظم نتاجها بعوارض طبيعية ضاقت الأرض عن أن تسع الأحياء . ولذا لا يبقى من الأحياء إلا أصلحها أو أقدرها على البقاء ومقاومة العوارض . وما « بقاء الأصلح » في الواقع إلا اصطلاح يراد به إيضاح عمل الانتخاب الطبيعي المقتضى أن الأحياء التي هي أكثر صلاحية للبقاء في بيئة طبيعية تظل حية لتنتج أمثالها ، في حين يفنى غير الصالح منها

على هذه القواعد الثلاث شرع دروين مذهبه الذي غير اتجاه العلم الطبيعي برمته في أواسط القرن الماضي . أما الذين اكبوا على دراسة الاجتماعيات فقد تساءلوا : إذا كانت سنة الطبيعة الثابتة تقضي ، لخير النوع وبقائه واحتفاظه بمستوى خاص من الحيوية والقدرة على مجالدة الأعاصير والأعداء ، بأن يفنى الطالح من نتاجه وألا يبقى إلا الصالح ، فان المدنية الحديثة بما تحوط به الطالحين من أسباب الحماية من الهلاك والفناء ، إنما تقاوم سنة الطبيعة الثابتة ، تلك السنة التي تقضي بأحد أمرين : فاما هلاك يصيب الطالحين ليفوز الصالحون بتخليف النسل فيحتفظ النوع بحيويته وبمثله العليا من حيث القوة والجهد ، وإما فساد يصيب طبيعة النوع بالابقاء على الطالحين الذين يورثونه كل الصفات التي يدركها الاحيائيون بين الأطلح والأصلح

ولنضرب لذلك مثلاً نقتطعه من حالاتنا الاجتماعية . فلقد استطاع الفلاح المصري أن يقاوم ثلاثة أشياء ، تسلط واحد منها على شعب غلت يد الطبيعة عن تزويده بمزايا الانتخاب الطبيعي ، كافية للقضاء عليه : فساد الحكومات ، والأمراض ، والحروب ، فلقد توالت على هذا الفلاح دورات من استبداد الحكومات منذ عهد الفراعنة إلى الآن ، لا يروي تاريخ أية أمة من الأمم لها شبيهاً . وازدياد عدد السكان في مصر الى عشرين مليوناً في عصر من العصور الى ثلاثة ملايين في عصر محمد علي ، دليل قاطع على عظم ما عانى هذا الشعب من عوامل الافناء وبرهان على ما فيه من حيوية استمدها من البيئة الطبيعية ومن حالاته الماشية التي ظلت متروكة لحكم الطبيعة فيه الآلاف من السنين . وليس لي هنا أن أتكلم في الأمراض التي سكنت جسم هذا الفلاح منذ أقدم العصور وأخصها (البلهارسيا) وقد استدل على وجودها بالموميات المحنطة من أقدم العصور : أما الحروب فيكفي أن تعرف أن الجيش المصري حارب في خمس وأربعين وقعة تحت لواء قائدنا العظيم ابراهيم وحده في فترة لا تزيد على ثلاثين عاماً . فما بالك بالعصور التي هدمت فيها الامبراطورية المصرية ثم بنيت على أكتاف هذا الفلاح منذ ستة آلاف خلون من الأعوام ؟

هذه الظاهرة تحملنا على أن نتساءل ما هو السر الذي جعل

هذا الفلاح على ما فى أسباب حياته من عوامل الافناء يصمد لعوادى الدهر والطبيعة فلا ينقرض ولا يبيد ، بل تراه اليوم وقد خرج من معارك التناحر على البقاء منصوراً ، وعلى ضفاف نيله المقدس سبعة عشر مليوناً يفلحون أرض مصر ويتطلعون الى أسمى المثل التى أوجدها التصور الديمقراطى الحديث ؟

قد يتفق أن يقول بعض الذين لا يقوون على وصل أسلوب التفكير العلمى بأسلوب التفكير الاستقرائى إن ذلك راجع الى صفات خص بها الشعب المصرى دون غيره من شعوب الأرض التى عاصرته . وقد يكون فى هذا الكلام بعض الحق ، فان للصفات الخلقية التى تتصف بها بعض الشعوب أثرا فى ذلك . ولكن إذا نظرنا فى الأمر من الوجهة الطبيعية الصرف ألفينا أن السبب راجع الى أن هذا الشعب قد ترك للطبيعة معرضاً لعواملها خاضعاً لقوانينها الحديدية منذ أبعد العصور . وظلت الطبيعة تتولى إنساله بالانتخاب الطبيعى فتفنى غير القادر منها على البقاء ، وتبقى فى حلبتها الصالحين للبقاء ، فاستطاعت بذلك أن تحفظ على هذا الشعب قدرا من الحيوية ظل ثابتاً على مدار العصور . وقد ترى هذا الفلاح اليوم بسحنته السمراء وجسمه النحاسى ، فما تقرأ فيه من آية إلا آية الطبيعة خطت على ملامحه الهادئة ؛ أما وداعة أخلاقه وصبره واحتماله وحدة نظراته وذكائه الموروث ، فتحملك لأول وهلة إذا ما نظرت اليه أن تقول : هو ذا ابن من أبناء الطبيعة لم يدخل فى فطرته بعد شىء من تزوير المدنية

ولا شك عندى فى أن تزوير المدنية لابد من أن يدرك فلاحنا بعد عهد قصير . فقد علت الصيحة فى هذا العصر بوجوب النظر فى ترقية الفلاح اجتماعياً . أما إذا كان الذين يصيحون هذه الصيحة لا يقصدون بها إلا أن يخرج الفلاح من تلك البيئة التى نشأ فيها الى بيئة مزورة ندعوها المدنية ، بأن نغل يد الطبيعة عن أن تدرك منه أغراضها الانتخابية ، وأن نعمل على حماية أولئك الذين كتبت عليهم الطبيعة آية الفناء بأسباب اصطناعية ، فان ذلك سوف يكون أول عهد الفلاح بفقدانه الحيوية التى استمدها من الطبيعة على مدار العصور وعلى تتالى الأحقاب . ولم أدرس بعد كيف نستطيع أن نحمى فلاحنا من مفاسد المدنية التى تقضى بابعاده عن حكم الطبيعة فيه ، وإنما أقول إن كل اصلاح اجتماعى لا يعوض على الفلاح ما سوف يسلب من فعل الطبيعة ، اصلاح هو الى الفساد أقرب شىء

ولقد بحث هذا المشكل الاجتماعى فحول من معاصرى الاجتماعيين ، وزكىّ بحوثهم فئة من كبار الاخصائيين فى أوروبا وأمريكا ، ولقد بان لهم بأجلى دليل أن الحماية المصطنعة التى حدّ بها العلم من فعل الطبيعة فى الطالحين ، أى غير القادرين على البقاء فى البيئة الطبيعية ، لولا تلك الحماية ، سبب من أكبر الأسباب التى ولدت ما يظهر على أكثر شعوب الأرض من مظاهر الهرم والضعف الحيوى ، حتى لقد لجأت ألمانيا وغيرها من ولايات أمريكا المتحدة والجزر البريطانية التى تعقر طبقات خاصة من المجرمين والمتوهين والفاسدين توصلا الى طريقة عملية يعوضون بها على الأحياء شيئا مما فقدت بالحماية المصطنعة من فعل الطبيعة والخضوع لسنتها الثابتة

من هذه البحوث بحث ألقاه لورد « دوصن Dawzan » فى الجمعية الطبية بمدينة يورك نشر بعنوان « الطب والتقدم الاجتماعى » تساءل فيه عما إذا كانت النزعة التى تنزع بنا الى حماية كل الأطفال الذين يولدون من قضاء الطبيعة فيهم ، مهما كانوا طالحين غير قادرين على البقاء بغير حماية فعلية ، أمراً مناقضاً لما تنشد من ارتقاء السلالات البشرية وخيرها فى مستقبل العصور . ففى خلال ستين عاما انخفضت نسبة الوفيات بين الأطفال من ١٥٦ فى الألف الى ٦٠ فى الألف ، ونزلت فى الأطفال الذين هم فوق الخامسة من ٦٨ الى ١٨ فى الألف ، وزاد عدد السكان فى خلال هذه (الفترة ١٨٧٠ ـ ١٩٣٤) خمسين فى المائة عما كان قبلا

على أننا نستطيع أن ندرس الظواهر التى تنشأ عن مثل هذه الحالات ، إذا رجعنا الى أنواع أخرى تعايشنا فى الطبيعة . فقد نرى أن الأنواع الأخرى ، غير النوع البشرى ، وغير الأنواع الداجنة التى يكثرها الانسان لأغراض له فيها ، تحتفظ بنسبة ثابتة فى الأعقاب ، أى فى تخليف النسل ، وأنه كلما أخذت نسبتها فى الزيادة العددية سلطت عليها الطبيعة عوامل تردها الى النسبة التى لاتسمح بأكثر منها ، فقد لحظ أن ازدياد عدد نوع من الأنواع يصحبه دائما ظهور أمرين : إما زيادة فى عدد الأنواع المفترسة ،

وإما ازدياد فى الأمراض . وفى هـذه الحالة لا يبقى من أفراد الأنواع إلا أقدرها على البقاء وأصلحها لأعقاب نسل يرث ما فيها من صفات تمكن النوع من الاحتفاظ بذاته ، فاذا صدت الطبيعة عن أن تقضى فى نوع بحكمها هذا ، ترتب على هذا انحطاط يظهر فى أعقاب هذا النوع

والمثل على هذا عديدة ، نقتصر على ذكر مثالين منها ، فقد حدث أن حاول أهل سويسرا أن يحموا نسـل حيوان يكثر فى جبالهم يدعى (الشموا) Chamois وهو فصيلة من الانعاميات Ungulata لها قيمة تجارية ، فأسروا عدداً منه فى داخـل مكان متسع أحيط بكل أنواع الحماية ، وبخاصـة من الذئاب التى هى أنـكى أعداء هذا الحيوان . فـكانت النتيجة المحتومة أن ظهر فى هذا النسل المأسور صفات انحطاطية بينة ، وكثر فيه عدد الأفراد المهزولة الضعيفة ، وبدت عليه كل علامات الانحلال الحيوى ، حتى اضطر المربون فى النهاية أن يدخـلوا إلى مكان الأسر عدداً محدوداً من الذئاب المفترسة ، فوجدت هـذه الذئاب فى الأفراد المنحطة فرائس يسهل اقتناصها ؛ وبعـد قليل استعادت البقية الباقية كل الصفات المثالية التى يمتاز بها النوع فى مراعيه الطبيعية

أما فى زيلاندا الجديدة فقد تـكررت هذه الظاهرة بينها ، والمعروف أن هذه الجزر من أمثل بقاع الأرض مناخاً وطبيعة لتربية الأنعام خاصة ، وذوات الثدى عامة ، ذلك بأنها خالية من الحيوانات المفترسة خلواً تاماً . فلما أن استوطنها الايقوسـيون حسن لديهم أن يدخلوا إليها عدداً من الغزال الأحمر الذى يعيش فى جبالهم العليا ، فـكانت لهذا الحيوانـ أمثل مباءة ، فتكاثر واكتنز لحماً ، ولـكن بان لهم بعد قليل من الزمن أن النوع الذى جلب من أثيوبيا مملوء حيوية ، محتفظ بأسمى الصـفات التى يتسم بها فى مراعيه ، قد ظهرت بينه أنواع انحرفت من صفات النوع المثالية . فـكانت أضعف بنية وأقل مقدرة على العـدو ، وقد شوه منظرها الخارجى بصـفات لم يكن لها من وجود فى أسلافها ، أما الدواء فـكان إدخال عدد من الذئاب المفترسـة القوية إلى الجزر ، كانت عدة الطبيعة فى القضاء على الطالحين من نسل هذا الحيوان ، فاستردت البقية الصالحة ، بعد فناء غيرها ، كل الصفات الحيوية التى يتصف بها النوع فى مراعيه

أمام هذه الحقائق أخذ المصلحون يفكرون فى تلك الوسائل التى يحاول بها دعاة المدنيـة والانسانية أن يصلوا من طريقها إلى حماية كل الأطفال الذين يولدون ، أليس فى الافراط فى اللجوء إلى هذه الوسائل معاندة للطبيعة بأن نكثر من نسل أناس يتصفون بالضعف الأدبى والعقلى والطبيعى ؛ مثلنا فى ذلك مثل أولئك الذين أرادوا أن يغالبوا الطبيعة فى تربية الشموا والغزال الأحمر ؟

وحجة الذين يميلون إلى الأخذ بالميول الانسانية فى مثل هذه البحوث العلمية ، أن نسبة الزيادة فى عدد السكان آخذة فى التناقص شيئاً بعد شىء ، وقد تقف عند حد خاص بعد زمن وجيز ؛ فلا سبب إذن للانزعاج والتشاؤم ؛ غير أن هؤلاء انمـا تغيب عنهم حقيقة رئيسية ، هى أن نسبة زيادة عدد السكان إن كانت قد أخذت فى النقص ، فانه نقص معكوس الآية ، ففى منتصف القرن التاسع عشر كان التجار وأصحاب الحرف الفنية من ذوى الأسر العديدة الأفراد ، فى حين أن كبر أسرات رجال الدين كان مضرب المثل ، فاذا وعينا أن متوسط عدد أفراد الأسرة فى أمة تريد الاحتفاظ بكيانها لا ينبغى أن يقل عن أربعة أنفس ، ذاكرين أن هنالك أسراً قد تظل عقيما ، وأخرى تصاب بالثـكل ، وعلمنا أن عدد الأسرة فى طبقتى الأطباء ورجال الدين لا يزيد عن اثنين ، علمنا أن اطراد النقص فى عدد السكان انما هو اطراد عكسى . ذلك بأن هذه النسبة تقيد الطبيعة من ناحيتين : الأولى اعقاب النسـل بالنسبة الطبيعية ؛ والثانية عدم تزويد الطبيعة بمادة للانتخاب ، اذ تغربل الناتج لتبقى على الأصلح

هذه هى الحالات التى يقع تحت سـلطانها انسان القرن العشرين ، فهل من سبيل إلى اتقائها ؟ يقول لورد « دوصن » إن اتقاءها مرهون على شرطين : الأول نشر المعلومات التى تتعلق بضبط النسل : والثانى التعقير الاختيارى . أما الشرط الأول ، وهو شرط قد تحقق منه شطر عظيم بذيوع الوسائل التى تضبط النسل ، فان عليه اعتراضاً ذا خطر عظيم ، هو أن الذين يجنحون إلى ضبط النسـل إنما هم أولئك الذين تمتبرهم زهرة المجتمع الانسانى من أصحاب العقول الراجحة والمزايا الفذة ، فى حين أن غيرهم من الطبقات الدنيا والطالحين يتناسلون جهد ما تبلغ استطاعتهم . وفى ذلك مشـكل هو بذاته أنكى من حماية غير القادرين على البقاء بالطرق الاصطناعية . فان قلة نسل الأولين وازدياد نسل الآخرين مفسدة سوف تسرع ببعض الجماعات إلى درجـة من الانحطاط

يخشاها المصلحون ، أما التعقير الاختيارى فلا يعقل أن يكون دواء ناجماً . ذلك بأن التعقير تشويه طبيعى لا يرضى به إلا اقلية من الناس لا يعتد بهم إذا قيسوا الى مجموع الأمة

ولست أرى أن فى هذين الأمرين منجى من الأخطار التى تحيق بالجماعات فى هذا الزمان ، ولا بد للمفكرين الذين يرغبون فى خير الانسانية ، ويودون أن يحتفظ النوع الانسانى بصفاته الرئيسية ، أن يقوموا على علاجات أخرى تكون ناجمة فى التعويض عن فعل الطبيعة فى الانتخاب مع فرض الحماية على المواليد أياً كانوا ومن أى طابع خرجوا الى هذه الدنيا

اسماعيل مظهر

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

الحصانة واليهودى الأفاق

— ٢ —

كانت كشوف بستور وكوخ قد شاعت فى الناس فثاروا لها جنوناً ، فكان لا هم لهم الا بها ، ولا حديث الا فيها ، فلما جاء عام ١٨٨٣ انقلب متشنيكوف من باحث طبيعى Naturalist الى صائد مكروب ؛ وكان قد خاصم رجال السلطة فى جامعة أودسا ، فترك الجامعة وذهب الى جزيرة صقلية ، وصحب معه زوجته ألجا وإخوتها ؛ فلما حلوا جميعاً بها اتخذوا لأنفسهم فيها منزلاً صغيراً ذا طابق واحد يطل على المياه اللازوردية لشاطىء كلَبرية [1] ؛ وفى حجرة الجلوس هيأ متشنيكوف لنفســه معملاً مرتجلاً . وأوحت اليه نفسه بأن الشىء الرائج عندئذ فى العلوم هو علم المكروب ، فأخذ يحلم الأحلام ويأمل الآمال عن كشوف خطيرة لمكروبات جديدة يكتشفها ، وكان يلذّ له العمل أيضاً فيها لذةَ صدق ، ولكنه لم يكن يدرى من طرائقها الخدّاعة شيئاً ، بل قل انه لم يكن رأى مكروبة واحدة ؛ وطال تجواله فى حجرة الجلوس هذه يشرح لألجا نظريات علم الحياة تارة ، أو هو يدرس نجوم البحر [1] Starfish وأسفنجياته تارة ، أو هو يحكى الحكايات لأخوة ألجا واخواتها ، واختصاراً كان يفعل كل شىء لا يمُتُّ بصلة الى تلك الأبحاث المجيدة التى قام بها كوخ وبستور

وذات يوم أخذ يدرس كيف تهضم الأسفنجيات ونجوم البحر أطعمتها ، وكان قبل ذلك عثر فى داخل هذه الأحياء على خلايا غريبة هى بعض أجسام هذه الأحياء ، ولكنها مع ذلك تدور فيها دوران الحر الطليق ، وكانت هذه الخلايا الأفاقة التائهة تسبح فى مجاريها كما تسبح الخلايا الأشهر المعروفة بالأميبا Amoepa تضرب ببعض جسمها الرخو قدُماً فى سائل الجسم ، فاذا برز منه ما يشبه اللسان جرّ ما تخلف من الجسم وراءه

وجلس متشنيكوف من بيته فى غرفة الجلوس ، وقعد إلى المنضدة وجاء بيرقات [2] من نجوم البحر ، وأدخل فى أجسامها شيئاً من صبغة الكرمين Carmine [3] ، وجاهد فى ادخالها جهاد الرجل الذى لا تستطيع يداه مجاراة عقله ، وضاق بهذه التجربة صدره للذى عانته أصابعه الثقيلة فى إجرائها ؛ وكانت تلك فكرة بارعة من بنات أفكاره الحسان ، لأن هذا العَلَق شفّاف كالزجاج ، فكان فى استطاعة صاحبنا أن يتتبع بعدسته مايجرى فيه ، ونظر فوجد تلك الخلايا الأفّاقة الطليقة تسبح إلى حبّات صبغته ، فاذا بلغتها التهمتها التهاماً ، ففرح وطَرِب ، وخال متشنيكوف الى تلك الساعة أنه يدرس كيف يهضم نجم البحر طعامه ؛ ولكن طافت فى حواشى فكره أشباح من افكار جديدة يتضاءل الى جانبها موضوع الهضم تضاؤلاً كبيراً ، أفكار رائعة مبهمة لا تتصل عبحث الهضم من قريب أو بعيد

وفى الغد ذهبت أولجا بالأطفال إلى السيرك circnus يشهدون ألعاب قردة بارعة التمثيل ؛ وبقى متشنيكوف حيث هو من غرفة الجلوس وعلى وجهه لحية كلحية القديسين ؛ وقد أخذ يشدّ شعراتها شداً ؛ وقد أخذ ينظر الى نجم البحر فى مائه بوعائه . ولكن لا يرى منه شيئاً . وفى ساعة قصيرة جرى له مثل الذى جرى للقديس بولس وهو فى طريقه الى دمشق لما شعّ فى وجهه ذلك النور الباغت فأعماه . نعم فى ساعة قليلة .

(١) المقاطعة الايطالية السفلى التى فى مقابلة مسينا

(١) نوع من السمك ذو جسم فيه رخاوة تشع منه أذرع كالمثلثات . عدده فى الأغلب خمسة فصورته كالصورة التقليدية للنجم

(٢) صغار السمك قبل أن يتم خلقه (٣) صبغ أحمر

فى دقيقة قصيرة ، فى ومضة برق ، أو لحظة عـين نزل الوحى على متشنيكوف فتغيّر بغتة مجرى حياته

« إن هذه الخـلايا الأفّاقة التوّاهة فى أجسام نجوم البحر تأكل الطعام وتلتهم حبّات الصبغة – إذن هى لابد تأكل المكروبات أيضاً . وفى أجسامنا نحن ، فى دمائنا نحن ، لابد أن كراتنا البيضاء هى التى تلتهم الجراثيم فتحمينا من غوازيها .. إن هذه الكرات البيضاء هى سبب حصانتنا من العدوى . . . إنها هى هى التى تقى الجنس البشرىّ من فناء سريع تحمله اليـه أجناس البشلّات »

وهكذا ، وبدون أى دليل ، وبدون محاولة أى تجربة ، قفز متشنيكوف هذه القفزة الكبرى من هضم نجم البحر الى أدواء الانسان

كتب فى مذكراته : « وبغتةً وجدت نفسى قد انقلبتُ عالِمَ أمراض Pathologist . وهذا انقـلاب كبير لا يَعْدِلهُ إلاّ انقلاب زمّار الى فلكىّ . وكتب « وأحسست أن هذه الفكرة ستتمخض من أمرٍ كبير الخطورة ، فاضطربت نفسى واهتاجت فأخذت أغدو فى الغرفة وأروح حتى لَذَهبت الى شاطىء البحر أستجمع فكرى » . وكتب : « وقلت لنفسى لو صحّت هذه النظرية إذن لتوقعت إذا أنا أدخلت فِلقة خشب فى نجم البحر أن تتجمع هذه الخـلايا الأفّاقة حول الفلقة دفعاً للسوء الطارىء . » وذكر بهذا أن الرجل تدخـل فى إصبعه الشوكة فينسى أن ينـتزعها فلا تلبث أن تتجمع حولها المِدّة والقيح وما هما الا طوائف من الخلايا البيضاء التى تطوف فى دم الانسان . ذكر هذا بهذا فهرول إلى الحديقة التى وراء بيته ، الى شـجيرة ورد كان ذوقها وزخرفها من أجل إخوة أولجا ليحتفلوا بها فى عيد الميلاد ، وانتزع منها بعض شوكها ، وعاد بالشوكات الى معمله ، وما هو بالمعمل ، وشكها جميعاً فى جسم أحد نجوم البحر وكان شفافاً كالمـاء

وما طلع فجر الغد حتى استيقظ وقد امتلأ قلبه بكل أمل بعيد ، ولم يتمهل بعد يقظته طويلاً حتى عرف أن ظنـه أصاب ، وأن خيال الأمس أصبح حقيقة اليوم . نظر الى شوكات الورد فوجد طوائف عدة من تلك الخلايا الأفاقة التائهة قـد ازدحمت حولها وأخـذت تماوج فى كثرتها وبطء حركتها . وكان فيما رأى الكفاية لاقناعه بأنه وجد تفسيراً للحصانة من جميع الأمراض ، وعادته فى الطفرة الى الاستنتاجات السريعة معروفـة مشهورة . وخرج فى هذا الصباح يخبر مشاهير أساتذة أوروبا بالذى وجده ، وكانوا اجتمعوا اتفاقاً بمدينـة مسينا Messina على القرب منه ، وقال لهم : « هذا هو السبب الذى من أجله يصمد الانسان لغائلة المكروبات » . وانطلق لسانه حـديداً فصيحاً يشرح لهم كيف حاولت خلاياه التواهـة أن تأكل الشوك أكلا لمـا ، واستطاع أن يريهم تلك التجربة الجيلة مصداقاً لدعواه فصدقه العلماء ، حتى ذلك العالم الجليل المخوف الأسـتاذ الدكتور فرشو Virchow آمن به وقد كان سَخِر بكوخ Koch لـما أتاه[1]

ومن هذا اليوم دخل متشنيكوف فى زمرة صُيّاد المكروب

— ٣ —

ثم ترك أُلجا والأطفال وراءه يعيشون وخـدمهم على قدر ما يستطيعون ، وذهب الى فينّا Vienna ليعلن من فوق منبرها أن الانسان حصين من الجراثيم لأن بدمه كريات بيضاء تائهة عملُها بلعُ هذه الجراثيم . وذهب تواً الى معمل صديقه القديم الأسـتاذ كِلاوُسْ Claus ، وكان عالم حيوان ، وكان يجهل من أمر المكروب بقدر ما جهـل متشنيكوف ، كذلك أُعجب بالذى سمعه وقال لصديقـه الضيف . « انه ليسرنى ويشرفنى كثيراً أنْ تنشر نظريتك فى مجلتى »

فقال متشنيكوف : « ولـكن لا بد لى من اسم علمى لهـذه الخلايا التى تلتقم المكروبات ، أعنى اسماً اغريقيـاً ، فأى الأسماء تقترح ؟ »

فرفع الأستاذ يده الى رأسه يحكّها ، وحكّ الجهابذة العلماء رؤوسهم معه ، ونظروا المعاجم ثم أخبروه أخيراً : « ان الـكلمة المُثلى هى فجوسه Phagocyte ، ومعناها بالاغريقية الخلية الملتهمة فهى اذن ضالّتكَ التى تنشُـد »

فشكرهم متشنيكوف ، وأخـذ هذه الكلمة وعلقها فى أعلى ساريته ، ثم حل القلاع وبخر بسفينه بحار حياته المضطربة ، وهذه الكلمة دينه ، وبهذه الكلمة يفسر كل شىء ، وهى صرخته فى حربه وفى سلمه ، وهى أداة عيشه وآلة رزقه . وصدّقنى أو كذّب لقد كان لهذه الكلمة نصيب كبير فى حفزنا إلى دراسـة ما هى الحصانة . ومن هذه الساعة أخذ متشنيكوف يبشر بالفجوسات ويذيع من أمرها كل جميل ، ويدفع عنها مقالة السوء ، وأجرى

(١) راجع ترجمة كوخ

علها أبحاثاً لها خطرها ، وعادى فى سبيلها ، ولا شك أنه بذلك أدّى نصيبه فى إحداث الحربَ العالمية الكبرى حرب عام ١٩١٤ عا عكّرت حملاته الشديدة ما بين فرنسا وألمانيا من مودّة لم تكن كثيرة الصفاء أبداً

وذهب من فينا الى أودسا ، وهناك ألقى خطاباً عظيما فى « القوّات الملاجية للكائن الحى » ، فدهش أطباء هذا البلد مما قال وأعجبوا به إعجاباً كبيراً ، فقد كان القاؤه غاية فى الأبداع ، وحرارة قلبه لا تدع للسامع شكا فى إخلاصه ، ولكن لا يوجد فى السجلات ما يفهم منه المطالع أنه أخبر جمهرة الأطباء بهذا البلد أنه لم يكن رأى إلى هذا العهد كرة دموية بيضاء واحدة تلتهم مكروبة واحدة من مكروبات الوباء . إن الناس جميعاً — ومنهم الأطباء العلماء — لا تقع أبصارهم على كلبين يتشاجران حتى تستوقفهم تلك الحرب الصغيرة فيتجمعون حولها إرواء للطبيعة وانتظاراً لعلم من تكون له الغلبة ، وكذلك كان الحال فى أمر متشنيكوف فان حكاية تلك الحروب الطاحنة الدائمة المتواصلة بين الفجوسات الجريئة الباسلة ، وهى تنهض إلى الثغور تدفع غزوة تلك المكروبات العادية القاتلة ، تلك الحكاية أثارت شوق الناس فأرهفت آذانهم لاستماع ، وفتحت قلوبهم لاقتناع

ولكن متشنيكوف عرف أنه لا بد له من البحث عن حقائق ذات بال تقوم دليلاً على الذى يقول ؛ ولم يطل به الزمن حتى وجدها بيّنة كالشمس رائقة كالبلور ، وذلك فى براغيث الماء(١) . ومضت عليه فترة من الزمن نسى فيها الخطابة ، وعكف فيها على صيد هذه البراغيث من البرك ومرابى الأسماك . وكان اختيارا عبقرياً أوحى اليه به لا شكّ شيطانه ، فهذه البراغيث كانت كملَق نجوم البحر شفافة ، فاستطاع بعدسته أن يرى ما يجرى فى داخلها ، وأخذ يبحث فى جَلَد شديد عن داء يكون فى هذه البراغيث ، وجاءه صبرٌ نادر على غير انتظار ، فعمِل طويلاً ، وبحث كما يبحث البحّاثة الفحّ وقليلا ما كانه

لعلك أيها القارئ أدركت من تاريخ المكروبات هذا أن الباحث كثيراً ما يعتزم البحث عن شىء فيبدأ بحثه فلا يلبث به طويلا حتى تقوده الطريق إلى أمور غير التى طلبها أولاً ؛ على أن هذا لم يكن من قِسمة صاحبنا ؛ فانه أخذ يرقب هذه البراغيث تضرب فى حياتها العادية ضرباً غير ذى غاية ولا نهاية . فلم يلبث أن رآها من خَلَل عدسته تبتلع بزور خمائر فيها خطر على حياتها . وكانت بزوراً حادة كالأبر . فلما بلغت إلى ما يشبه المعدة من البرغوث نفذت فيه وأخذت تسير انزلاقا فى جسمه . هنا رأى متشنيكوف ما خصّته الأقدار برؤيته . هنا نظر ما أتحفته الحظوظ الطيبة بنظرته : سارت خلايا البُرغوث الأفّاقة التوّاهة : تلك الفَجُوسات التى تقى الجسم شرّ الدخيل ، سارت نافرة إلى تلك البزور الفاتكة العادية ، فتجمعت حولها ، وحلّقت عليها . فأذابتها ، وأكلتها أكلا ، وهضمتها هضما ...

ومما زاد نظريته ثبوتاً ، أن بعض البراغيث كانت تتخاذل فَجُوساتها أحياناً عن النفْر الى العدوّ الغازى ، فكانت بزور تلك الخمائر تستقر فى جسم البرغوث فتتنفس عن خمائر حية ناشطة تتكاثر تكاثرا ذريعاً فتسمم البرغوث فتقتله ثم هى تأكله

أطلّ متشنيكوف من خلال عدسته على هذه المعارك الجليلة تدور رحاها فى هذه الميادين الصغيرة فعرف أول عارفٍ سرّاً من أسرار الطبيعة خبأته عن الناس زمانا طويلاً ، عرف كيف تدفع بعض الخلائق عن نفسها غائلةً لو قعدت عنها لكانت قاتلة . وقد كان صادقا فى الذى رآه ، وقد كان بارعا موفّقاً فى الطريق الذى سلكه ، فأنّى يخطر على بال امرىء أن يبحث عن علّة الحصانة فى مخلوق غريب بعيد كل البعد عن أذهان الناس كبرغوث الماء . وقنع بالذى وجد من بحثه ، وآمن كل الايمان بنظريته فلم يتابع دراسة تلك المعارك التى كان يقضى فيها كوُخُ السنوات العديدة لو أنه اتفق له منها ما اتفق لمتشنيكوف . وأخيراً نشر مقالة نمّت عن علم جم وفضل كثير قال فيها : « إن حصانة براغيث الماء ترجع الى فُجَوساتها ، وهى مَثَل للأسلوب الطبيعى فى الوقاية من الوباء . . . فان بزرة الخميرة اذا لم تلقها خلايا الجسم التوّاهة الدّفاعة فتبتلعها عند نفاذها فى الجسم ، استطاعت تلك البزرة أن تنبت الخميرة واستطاعت هذه أن تتكاثر وأن تفرز سماً لا يبيد خلايا الجسم الدافعة فحسب ، بل يقتلها ويذيبها كما يذوب الملح فى الماء »

(يتبع)

احمد زكى

(١) تطلق على أصناف من الحيوانات القشرية التى تعيش فى الماء وقد يبلغ طولها عشر البوصة وقد يبلغ جزءاً من المائة منها ، وهى شفافة الجسم تتراءى أحشاؤها واضحة تحت المكرسكوب . وهى تسير فى الماء نقزا كالبرغوث « المترجم »

أعلام الإسلام

٢ – سَعِيد بن المُسَيِّب

للأستاذ ناجى الطنطاوى

ضرب وحبس

قال عبد الله بن جعفر وغيره : استعمل عبد الله بن الزبير جابر بن الأسود بن عوف الزهرى على المدينة ، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير فقال سعيد بن المسيب : لا : حتى يجتمع الناس ، فضربه ستين سوطاً ، فصاح به سعيد والسياط تأخذه : والله ما ربعت على كتاب الله ، يقول الله : انكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وإنك تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة ، وما هى إلا ليال فاصنع ما بدالك ، فسوف يأتيك ما تكره . فما مكث إلا يسيرا حتى قتل ابن الزبير . وروى أن ابن الزبير لما بلغه ضرب ابن المسيب كتب إلى جابر يلومه ويقول : ما لنا ولسعيد ؟ دعه

وقال يحيى بن سعيد : كتب والى المدينة إلى عبد الملك بن مروان : إن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان [1] إلا سعيد بن المسيب . فكتب أن اعرضه على السيف ، فان مضى وإلا فاجلده خمسين جلدة ، وطف به أسواق المدينة [2] . فلما قدم الكتاب على الوالى ، دخل سليمان بن يسار ، وعروة بن الزبير ، وسالم بن عبد الله ، على سعيد بن المسيب ، فقالوا : إنا قد جئناك فى أمر : قد قدم فيك كتاب من عبد الملك بن مروان إن لم تبايع ضربت عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثاً ، فاعطنا إحداهن ، فان الوالى قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل « لا » ولا « نعم » ، قال : فيقول الناس بايع سعيد بن المسيب ؛ ما أنا بفاعل . (قال) : وكان إذا قال : لا ، لم يطيقوا عليه أن يقول نعم . قال : مضت واحدة وبقيت اثنتان . قالوا : فتجلس فى بيتك فلا تخرج إلى الصلاة أياماً ، فانه يقبل منك إذا طلبت فى مجلسك فلم يجدك . قال : وأنا أسمع الأذان فوق أذنىّ : حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح ؟ ما أنا بفاعل . مضت اثنتان وبقيت واحدة . قالوا : فانتقل من مجلسك إلى غيره ، فانه يرسل إلى مجلسك فان لم يجدك أمسك عنك . قال : فرقاً لمخلوق [1] ؟ ما أنا بمتقدم لذلك شبراً ولا متأخر شبراً . فخرجوا وخرج إلى الصلاة ، صلاة الظهر ، فجلس فى مجلسه الذى كان يجلس فيه ، فلما صلى الوالى بعث اليه فأتى به ، فقال : إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك ، قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيعتين [2] فلما رآه لا يجيب أخرج الى السدة فمدّت عنقه وسلّت عليه السيوف ، فلما رآه قد مضى أمر به فجرّد ، فاذا عليه تبّان شعر فقال : لو علمت أنى لا أقتل ما اشتهرت بهذا التبّان [3] ، فضربه خمسين سوطاً ثم طاف به أسواق المدينة ، فلما ردّه [4] والناس منصرفون من صلاة العصر قال : إن هذه لوجوه ما نظرت اليها منذ أربعين سنة

وروى أن سعيداً لما جرّد ليضرب ، قالت له امرأة : إنّ هذا لمقام الخزى ، فقال لها سعيد : من مقام الخزى فررنا

وقال قتادة : أتيت سعيد بن المسيّب ، وقد ألبس تبّان شعر وأقيم فى الشمس فقلت لقائدى : أدننى منه فأدنانى منه ، فجعلت أسأله خوفا من أن يفوتنى وهو يجيبنى حسبة والناس يتعجبون

---

(١) عقد عبد الملك لابنيه بالعهد بعد موت عبد العزيز بن مروان بمصر سنة ٨٤

(٢) روى رجاء أن عبد الملك كتب اليه : مالك ولسعيد ؟ ما كان علينا منه شىء نكرهه ، فأما إذ فعلت فاضربه ثلاثين سوطاً وألبسه التبان وأوقفه للناس لئلا يقتدى به الناس . وفى رواية أن هشاماً ضرب ابن المسيب من غير أن يستأذن عبد الملك فى ضربه

(١) لعلها : من مخلوق

(٢) وروى أنه قال : لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فقيل ادخل من الباب واخرج من الآخر قال : والله لا يقتدى بى . وفى رواية أنه قال : لا أبايع وعبد الملك حى

(٣) وقيل إن هشاما ألبسه التبان وطاف به حتى بلغ رأس الثنية ، فلما كروا به قال : أين تكرون بى قالوا : إلى السجن . قال : والله لولا أنى ظننت أنه الصلب ما لبست هذا التبان أبداً ، فرده إلى السجن وحبسه . وفى رواية أن الأيليين (نسبة لأيلة) الذين كانوا فى شرطة المدينة قالوا : علمنا أنه لا يلبس التبان طائعا فقلنا له : يا أبا محمد ، إنه القتل فاستر عورتك فلبسه ، فلما ضرب قلنا له : إنا خدعناك . قال : يا معجلة أهل أيله ، لولا أنى ظننت أنه القتل ما لبسته (٤) إلى السجن

وقال عبد الله بن يزيد الهذلي : دخلت على سعيد بن المسيّب السجن ، فاذا هو قد ذبحت له شاة ، فجعل الاهاب على ظهره ، ثم جعلوا له بعد ذلك قضباً [1] رطباً ، وكان كلما نظر الى عضديه قال : اللهم انصرني من هشام

وقال أسلم أبو أمية مولى بني مخزوم وكان ثقة : صنعت ابنة سعيد بن المسيّب طعاماً كثيراً حين حبس ، فبعثت به اليه ، فلما جاء الطعام دعاني سـعيد فقال : اذهب الى ابنتي فقل لها : لا تعودي لمثل هذا أبداً ، فهذه حاجة هشام بن اسماعيل ، يريد أن يذهب مالي فأحتاج الى ما في أيديهم وأنا لا أدري ما أحبس ، فانظري الى القوت الذي كنت آكل في بيتي فابعثي اليّ به ، فكانت تبعث اليه بذلك ، وكان يصوم الدهر

وقال قتادة عن سعيد بن المسيّب إنه كان إذا أراد الرجل أن يجالسه قال : إنهم قد جلدوني ، ومنعوا الناس أن يجالسوني

وقال عبد الله بن جعفر وغيره : كتب هشام بن إسماعيل إلى عبد الملك بن مروان يخبره بخلاف سعيد بعد أن وضعه في السجن وما كان من أمره ، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع به ويقول : سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه من أن تضربه ، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف [2]

وقال الواقدي : كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره أن يقف هشام بن اسماعيل للناس ، وكان فيه سيء الرأي ، فدعا سعيد ابنه ومواليه فقال : ان هذا الرجل يوقف للناس أو قد وُقف فلا يتعرض له أحد ، ولا يؤذه بكلمة ، فانا سنترك ذلك لله وللرحم ، فان كان ما علمت لسيء النظر لنفسه فأما كلامه فلا أكلمه أبداً !

وقال عمران : كان لسعيد بن المسيب في بيت المـال بضعة وثلاثون ألفاً عطاؤه ، فكان يدعى إليها فيأبى ويقول : لا حاجة لي فيها حتى يحكم الله بيني وبين بني مروان !

معاملته للخلفاء والولاة

قال علي بن زيد : قيل لسعيد بن المسيب : ما شأن الحجاج لا يبعث إليك ، ولا يحركك ، ولا يؤذيك ؟ قال : والله لا أدري إلا أنه دخل ذات يوم مع ابنه المسجد ، فصلى صلاة ، فجعل لا يتم ركوعها ولا سجودها ، فأخذت كفاً من حصى فحصبته به ، زعم أن الحجاج قال :

ما زلت بعد ذلك أحسن الصلاة

وقال عمران بن عبد الله بن طلحة بن خلف الخزاعيّ : حجّ عبد الملك بن مروان ، فلما قدم المدينة فوقف على باب المسجد ، أرسل إلى سعيد بن المسيب رجلاً يدعوه ولا يحركه ؛ قال : فأتاه الرسول وقال : أمير المؤمنين واقف بالباب يريد أن يكلمك ، فقال ما لأمير المؤمنين الى حاجة ، وما لي إليه حاجة ، وإن حاجته إلي لغير مقضية ! قال : فرجع الرسول إليه فأخبره فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال له سعيد ما قال له أولاً . فقال له الرسول : لولا أنه تقدم الى فيك ما ذهبت اليه إلا برأسك . يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك تقول له مثل هذه المقالة ؟ ! فقال : إن كان يريد أن يصنع بي خيراً فهو لك ، وان كان غير ذلك فلا أحل حبوتي حتى يقضي ما هو قاض . فأتاه فأخبره فقال : رحم الله أبا محمد ، أبى الا صلابة

وقال عمرو بن عاصم : لـما استخلف الوليد بن عبد الملك ، قدم المدينة فدخل المسجد فرأى شيخاً قد اجتمع الناس عليه ، فقال : من هذا ؟ فقالوا سـعيد بن المسيّب ؛ فلما جلس أرسل اليه فأتاه الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : لعلك أخطأت باسمي أو لعله أرسلك الى غـيري ! قال : فأتاه الرسول فأخبره ، فغضب وهمّ به ، قال : وفي الناس يومئذ بقية ، فأقبل عليه جلساؤه فقالوا : يا أمير المؤمنين فقيه أهل المدينة ، وشيخ قريش ، وصديق أبيك ، لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه . قال : فما زالوا به حتى أضرب عنه

وقال ميمون بن مهران : قدم عبد الملك بن مروان المدينة ، فامتنعت منه القائلة واستيقظ ، فقال لحاجبه : أنظر هل في المسجد أحد من حداثنا من أهل المدينة ؟ فخرج فاذا سعيد بن المسيّب في حلقة له ، فقام حيث ينظر اليه ، ثم غمزه وأشار اليه بأصبعه ثم ولى ؛ فلم يتحرك سعيد ولم يتبعه . فقال : ما أراه فطن ، فجاء فدنا منه ثم غمزه وأشار اليه وقال : ألم ترني أشير اليك ؟ قال :

(١) القضب : الرطبة (وهي الفصفصة) وقيل كل نبت اقتضب فأكل طريا (٢) وروى أن هشاماً جاءه كتاب من عبد الملك بن مروان يلومه في ضربه سعيد بن المسيب ويقول : ماضرك لو تركت سعيداً ووطئت ما قال ؟ فندم هشام بن اسماعيل على ما صنع بسعيد فخلى سبيله

وما حاجتك ؟ قال : استيقظ أمير المؤمنين ، فقال : أنظر فى المسجد أحد من حداثى ، فأجب أمير المؤمنين ، فقال ، أرسلك الىّ ؟ قال : لا ، ولكن قال اذهب فانظر بعض حداثنا من أهل المدينة ، فلم أر أحدا أهيأ منك . فقال سعيد : اذهب فأعلمه أنى لست من حداثه ! فخرج الحاجب وهو يقول : ما أرى هذا الشيخ إلاّ مجنونا ! فأتى عبد الملك فقال له : ما وجدت فى المسجد إلا شيخاً أشرت اليه فلم يقم ، فقلت له إن أمير المؤمنين قال انظر هل ترى فى المسجد أحداً من حداثى فقال : إنى لست من حداث أمير المؤمنين . وقال لى : أعلمه ، فقال عبد الملك : ذاك سعيد بن المسيّب ، فدعه

وقال هشام بن عروة : لما تزوج الحجاج ، وهو أمير المدينة بنت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، أتى رجل سعيد بن المسيب فذكر له ذلك ، فقال . إنى لأرجو ألا يجمع الله بينهما ، ولقد دعا داع بذلك وابتهل ؛ وعسى الله ؛ فان أباها لم يزوج إلا الدراهم ، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان أبرد البريد الى الحجاج وكتب اليه يغلظ له ويقصر به ويذكر تجاوزه قدره ، ويقسم بالله لئن هو مسّها ليقطعنّ أحبّ أعضائه اليه ، ويأمره بتسويغ أبيها المهر ، وبتعجيل فراقها ، ففعل فما بقى أحد إلاّ سره ذلك

وقال المطلب بن السائب : كنت جالساً مع سعيد بن المسيب فى السوق فمرّ بريد لبنى مروان ، فقال له سعيد : من رسل بنى مروان أنت ؟ قال : نعم ؛ قال : كيف تركت بنى مروان ؟ قال : بخير . قال : تركتهم يجيعون الناس ويشبعون الكلاب ! فاشرأبّ الرسول ، فقمت اليه فلم أزل أرجيه حتى انطلق فقلت لسعيد : يغفر الله لك ، تشيط بدمك ؟ فقال : أسكت يا أحيمق ! فو الله لا يسلّمنى الله ما أخذت بحقوقه

وقال صالح بن كيسان : حجّ الوليد بن عبد الملك ، فلما دخل المدينة غدا إلى المسجد ينظر إلى بنائه ، فأخرج الناس منه ، فما ترك فيه أحد ، وبقى سعيد بن المسيّب ما يجترىء أحد من الحرس أن يخرجه ! وما عليه إلا ريطتان ما تساويان إلا خمسة دراهم فى مصلاه . فقيل له : لو قمت ، قال : والله لا أقوم حتى يأتى الوقت الذى كنت أقوم فيه . قيل : فلو سلّمت على أمير المؤمنين . قال : والله لا أقوم إليه ! قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد فى ناحية المسجد رجاء ألا يرى سعيداً حتى يقوم ، فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة فقال : من ذلك الجالس ؟ أهو الشيخ سعيد بن المسيّب ؟ فجعل عمر يقول : نعم يا أمير المؤمنين ، ومن حاله ، ومن حاله ، ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك ، وهو ضعيف البصر . قال الوليد : قد علمت حاله ، ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار فى المسجد حتى وقف على القبر ، ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال : كيف أنت أيها الشيخ ؟ فو الله ما تحرّك سعيد ولا قام ! فقال : بخير والحمد لله يا أمير المؤمنين . قال الوليد : خير والحمد لله . فانصرف وهو يقول لعمر : هذا بقية الناس . فقلت : أجل يا أمير المؤمنين

رفضه أخذ العطاء

قال عمران بن عبد الله : كان سعيد بن المسيب لا يقبل من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً ولا شيئاً ، وربما عرض عليه الأشربة فيعرض فليس يشرب من شراب أحد منهم

وقال العجلى وغيره : كان لا يقبل جوائز السلطان [1] ، وله أربع مائة دينار يتجر فيها بالزيت وغيره

(يتبع) ناجى الطنطاوى

(١) وقد مر أنه كان له فى بيت المال بضعة وثلاثون ألفاً عطاؤه كان يدعى إليه فيأبى ويقول : لا حاجة لى فيها ، حتى يحكم الله بينى وبين بنى مروان

ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي

اشتغال العرب بالأدب المقارَن

أو ما يدعوه الفرنج « littérature comparée »

فى كتاب تلخيص كتاب أرسطو فى الشعر

لفيلسوف العرب أبى الوليد بن رشد

[تتمة المنشور فى العدد الماضى]

— تلخيص وتحليل —

للأستاذ خليل هنداوى

بحث فنى فى التخييلات والمعانى والألفاظ والأجزاء

وقد بحث فى ماهية الأوزان ، فجعل من المعانى والتخييلات ما تناسبه الأوزان الطويلة ومنها ما تناسبه القصيرة ؛ وربما كان الوزن مناسباً للمعنى غير مناسب للتخييل ، وربما كان الأمر بالعكس ، وربما كان غير مناسب لكليهما . على أن أمثلة هذه مما يعسر وجوده فى أشعار العرب إذ تكون غير موجودة فيها ، إذ أعاريفهم قليلة القدر ، وألفاظ الشعر يجب أن تؤلف من الأسماء المبتذلة ومن الأسماء الأخر يعنى المنقولة الغريبة المغيرة واللغوية ، لأنه متى تعرى الشعر كله من الألفاظ الحقيقية كان رمزاً ولغزاً . ويجب أن يكون الشاعر حيث يريد الايضاح وألا يخرج إلى حد الرمز كما لا يفرط فى الأسماء المبتذلة فيخرج عن طريقة الشعر إلى الكلام المتعارف . وأما موافقة الألفاظ بعضها لبعض فى المقدار ، ومعادلة المعانى بعضها لبعض ، وموازنتها ، فأمر يجب أن يكون عاماً ومشتركاً لجميع الألفاظ . وقد يستدل على أن القول الشعرى هو المغير أنه إذا غير القول الحقيقى سمى شعراً وقولاً شعرياً ووجد له فعل الشعر ، مثال ذلك قول القائل :

ولما قضينا من منًى كلَّ حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

وإنما صار هذا شعراً من قبيل أنه استعمل بيته الأخير بدل قوله « تحدثنا ومشينا » ، وكذلك قوله : « بعيدة مهوى القرط » إنما صار شعراً لأنه استعمله بدل قوله : « طويلة العنق » وكذلك قول الآخر :

يا دار أين ظباؤك اللعس ، قد كان لى فى إنسها أنس

إنما صار شعراً لأنه أقام الدار مقام الناطق وأبدل لفظ النساء بالظباء ، وأتى بموافقة الانس والأنس . وأنت إذا تأملت الأشعار المحركة وجدتها بهذه الحال ، وما عدا هذه التغييرات فليس فيه من معنى الشاعرية إلا الوزن فقط ، والتغييرات إنما تكون بجميع الأنواع التى تسمى عندنا مجازاً ، والفاضل من هذه الأشياء أن يستعمل من كل واحد منها ما هو أبين وأظهر وأنبه ، وهذا لا يوجد إلا فى النادر من الشعراء لأنه دليل المهارة

وقد أتى المترجم على نموذج من نماذج قصائد المديح ، يريد أن يحلل الأجزاء التى تتركب منها القصيدة ، فأرجع تأليفها — عند العرب — إلى ثلاثة أجزاء : الجزء الأول الذى يجرى عندهم مجرى الصدر فى الخطبة كذكر الديار والتغزل ، والجزء المبنى على المديح ، والجزء الذى يجرى مجرى الخاتمة فى الخطبة . وهذا إما دعاء للممدوح أو تقريظ للشعر الذى قاله . والجزء الأول أشهر من هذا الآخر ، ولذلك يسمون الانتقال إلى الثانى استطراداً ، وربما أتوا بالجزء الثانى دون الجزء الأول كقول أبى تمام : « لهان علينا أن نقول ونفعلا »

أو قول أبى الطيب : « لكل امرىء من دهره ما تعوّدا »

ويرى خير المدائح المدائح التى يوجد فيها التركيب أى ذكر الفضائل والأشياء المحزنة المخوفة والمرققة . . . وكأنى بابن رشد لم يفصل هذه الأشياء لأن العرب لا يمزجون الأشياء المحزنة المخوفة والمرققة بمدائحهم . . . وإنما هى من صفات الشعر اليونانى (وبخاصة الأوميروسى) . ثم انتقل إلى ذكر الخرافة ، والخرافة تكاد تغلب على الأشعار اليونانية . . . ولكن أرسطو يرى أن الخرافة ينبغى أن يكون مخرجها مخرج ما يقع تحت البصر ، لأنه إذا كانت الخرافة مشكوكاً فيها لم تفعل الفعل المقصود بها ، وذلك أن ما لا يصدقه المرء فهو لا يفزع منه ولا يشفق له ، وفى هذا سر عميق من أسرار الابداع ، إذ ليس الشاعر من أغرب وأعجب ، وليس الشعر بالشعر الأذهب فى الغرابة والتخيل البعيد عن الصدق

كما يذهب إليه بعض الشعراء . والشاعر الموهوب قد يتناول ما بين يديك ، ويدخل فى عالم نفسك ، ثم يحدثك عما تعرفه وتحسب أنك لا تعرفه ... لأنه أدرك بتعمقه وتأمله أشياء منك لم تدركها بنظراتك السطحية

ثم عرض للأشياء التى يجب أن تمدح فى الممدوح معللاً إياها تحليل الفيلسوف الذى لا يسمح بعبث فى الفضيلة ، ولا بتلاعب فى الحقيقة . هو يريد من الشعراء أن يتبعوا هذه الحقيقة ، وأن يبرزوا من الممدوح الصفات التى يتحلى بها . . . وإنما تمدح العادات الخيرة والفاضلة ، والعادات اللائقة بالممدوح والصالحة له ، وذلك أن العادات التى تليق بالمرأة ليست تليق بالرجل . وأن تكون مما يشابهه وأن تكون معتدلة متوسطة بين الأطراف ، ثم لا يورد الشاعر فى شعره من المحاكاة الخارجة عن القول إلا بقدر ما يحتمله المخاطبون من ذلك حتى لا ينسب إلى الغلو والخروج عن طريقة الشعر . وكما أن المصور الحاذق يصور الشيء بحسب ما هو عليه فى الوجود حتى إنهم قد يصورون الغضاب والكسالى مع أنها صفات انسانية ، كذلك يجب أن يكون الشاعر فى محاكاته يصور كل شيء بحسب ما هو عليه حتى يحاكى الأخلاق وأحوال النفس ومن هذا النوع من التخييل قول أبى الطيب يصف رسول الروم الواصل إلى سيف الدولة :

أتاك يكاد الرأس يجحد عنقه وتنقد تحت الذعر منه المفاصل
يقوّم تقويم السماطين مشيه اليك إذا ما عوّجته الأفاكل(١)

ينتهى ابن رشد من مقارناته ، ويذكر شذوذ العرب فى كثير من هذه القوانين الشعرية . ويقول مع أبى نصر الفارابى : « وأنت تعلم من هذا أن ما شعر به أهل لساننا من القوانين الشعرية هو نزر يسير » وفى الحق يتبين لنا هذا الشذوذ كثيراً عند دراستنا للشعر العربى دراسة نقدية كما يتصورها ابن رشد ، وذلك عائد إما إلى جهل العرب لهذه القوانين ، وإما الى أن هذه القوانين لم تلائم طباعهم . وهذا القول أرجح عندى لأن الأمة لا يمكنها أن تخلق لشعرها قوانين قبل أن يكون لها شعر !!! وأن شعرها الذى تسوقه هو الذى يخلق قوانين تقدها ! إلا إذا أرادت أن تحاكى أمثلة سواها ، وأن تقبل التأثر بقوانين غيرها ...

وإننا لن نتلو فى التشيع لهذه القوانين لأننا نراها قوانين إذا أفادت مرة فقد لا تفيد كثيراً . . . والعبقرية فى الشعر تستلهم نفسها ولا تستلهم قوانين . ولكن هذا لا يصرفنا عن القول بأن هنالك قوانين إذا لم يحترمها الشاعر عاد عليه ذلك بالفساد . وإنما أبلغ سقراط حين شبه الشاعر بالمصور ، فليس المصور ذلك الذى يمنح صور الأشياء ، أو يخلق أشياء غريبة لا تناسق فيها ولا فكرة . وليس الشاعر بالذى يعطّل نظام الطبيعة الشامل ، ويمكس ألوان الأشياء بتخيله المضطرب ! ! ! إنما المصور من يساعد الطبيعة على ابداعها وتزيينها ، والشاعر هو من يكون أميناً على ما يتمثل له فى الحياة . . .

وقد تكون قوانين سقراط فى الشعر – صارمة قاسية لأنه يطلب من الشعر ما يطلب من الفلسفة ، اعتصام بالفضيلة ، واستمساك بالحقيقة ..! وقد يخرج عن هذه الحدود لأنه لا يطيق القيود ، وقد يرضى بأن يهذب نفسه ولكنه لا يرضى بأن يفادى بحريته . . . جناح الفن دائما خفاق يبتغى السمو والعلو ، وويل للفن إذا استعان بجناحه على الانحدار بدلاً من الارتفاع ، لأن روعة الفن فى ارتفاعه لا فى انحداره !

وقد كان ينبغى لمثل هـذه القوانين الشعرية أن تثير ضجة فى الشعر العربى لأنها مقاييس غريبة ، منطقية فى النقد ، ولكنها مرت هادئة كمر السحاب ، لا لأن الأدباء لم يفقهوها ، وقد قربها ابن رشد من الأفهام بعد أن عرّبها وأعربها بالنماذج والأمثلة العربية ، ولكن أهل البيان العربى ، وجدوا أن الأدب العربى الطافح بما يخالف هذه القوانين ، يستحيل عليه أن يحطم ماضيه وأن ينهج طريقاً جديداً يخطه بأيدى هذه القوانين الجديدة التى لا تلائم البيان العربى ! ! !

(دير الزور) خليل هنداوى

مجموعات الرسالة

ثمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٥٠ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثانية (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا اجرة البريد
ثمن مجموعة السنة الثالثة (فى مجلدين) ٧٠ قرشاً عدا أجرة البريد
وأجرة البريد من كل مجلد فى الخارج ١٥ قرشاً

(١) يقول : أتاك وقد داخله الخوف مما أراه القتل نصب عينيه حتى يكاد رأسه ينكر عنقه لتوهمه أنه انفصل عنه وتكاد مفاصله تتقطع من الخوف وكان إذا تعوج مشيه من الرعدة قومه تقويم السماطين (وهما صفان من الجند) من جانبيه

الحياة الأدبية فى تونس

للأستاذ محمد الحليوى

« يجب أن يصف أدباء كل قطر من الأقطار الحياة الأدبية فى قطرهم ، ومبلغ قوتها وضعفها ...... لنتعاون جميعاً على علاجها ومداواتها ...... »
على الطنطاوى (الرسالة ١٣٦)

الكلام عن الحياة الأدبية فى تونس يشمل الكلام عنها من ناحيتين مختلفتين . فان كان المراد بالحياة الأدبية كثرة المشتغلين بالأدب ، والمهتمين بالحديث عن رجاله ، والمقبلين على مجالسه ونواديه ، والمطالعين لكتبه ومجلاته ، فنى تونس حياة أدبية لا بأس بها . والظاهرة البارزة فى الأوساط المثقفة هى حب الأدب ، والتطلع إلى كل ما يمت اليه بصلة . فالشباب التونسى يصرف هواه وجل نشاطه ومجهوده فى الاشتغال بالأدب ولواحقه ؛ ومجالس الشيوخ والكبراء يغلب عليها الحديث عن الأدب والأدباء ، والميل إلى المطارحات الأدبية ، والمساجلات الشعرية ؛ وكل فكرة جديدة ، أو خبر أدبى ، أو كتاب ناجح تجد له صداه فى كل الأوساط المتعلمة

ولكننا إذا أردنا بالحياة الأدبية الانتاج الأدبى والمجهود الفردى لخدمة الأدب بواسطة التأليف والنشر ، فتونس ليس لها حياة أدبية تليق بمكانتها التاريخية ومركزها الجغرافى فى أفريقية الشمالية . وإنه ليُعيي الباحث أن يدلّ دلالة واضحة ملموسة على القسط الذى ساهمت به تونس فى تكوين هاته النهضة الأدبية المعاصرة فى الشرق العربى ، وأن يبين أن للأدب التونسى ناحية خاصة تميزه ، ومعالم معروفة لا يمكن أن ينكرها مُنكر ، أو يتجاهلها متجاهل

وها نحن أولاء نستعرض بعض مظاهر الحياة الأدبية فى تونس ، ونقول فيها كلمة الحق ، وإن كان من الحقائق ما هو مؤلم

* * *

الشعر فى تونس

هناك فى تونس شعراء كثيرون ، ودواوين شعرية مطبوعة كديوان « خزنه دار » ، وديوان سعيد أبو بكر ، وديوان مصطفى آغه ، ومجموعة للأدب التونسى المعاصر فى أربعة أجزاء جمعها زين العابدين السنوسى صاحب مجلة « العالم الأدبى » ، وترجم فيها لما يزيد على ثلاثين شاعراً ، وانتخب من شعرهم منتخبات مطولة . ولكن الشعر التونسى فى مجموعه لم يبلغ من القوة والابتكار والاستقلال الفكرى والمميزات الفردية ، وظهور الشخصيات القوية ، ما يجعله يقوى على تحمل المقارنة بالشعر العالى أو ينمت بالأدب الرفيع . ومن سوء حظ تونس أن الفرد الوحيد الذى استطاع أن يعلو بشعره إلى مكانة الشعر الراقى ويضاهى به أنبغ شعراء العرب والغرب قد مات فى العام الماضى فى ريعان الشباب ؛ وبكته تونس فى حفلة رائعة اشترك فيها كثير من أدباء الأقطار العربية

والشعر التونسى المعاصر يسيطر عليه تقريباً الشعراء الشيوخ وهم الذين يخصون فنون الشعر القديمة بجل عنايتهم ؛ وشعراء الشباب يغلب على شعرهم الميل الى التجديد فى المعانى والأغراض وحتى الأوزان والأساليب ، ولكن الذى يعاب عليهم هو غلبة تفكير الجرائد ومواضيعها على أدبهم ، وفقر شعرهم من المعانى القوية والصور الشعرية ، واحتياجهم إلى الثقافة العامة القائمة على سعة الاطلاع والاحاطة بتاريخ الحركات الأدبية والفكرية فى مختلف العصور ؛ ويعاب عليهم أيضاً هذا النوع من الأدب الباكى الذليل ، فلا يكاد أحدهم يشدو فى نظم الشعر حتى تراه ينظم فى البؤس وتوابعه ، ويتشاءم من كل شىء فى الحياة ؛ فنحن نقبل هذا النوع من الكهول والشيوخ الذين دخلوا معركة الحياة وتمرسوا بآفاتها ، ولكننا نرفضه من الشباب ، لأن الشباب أمل وعزيمة وحب للكفاح والغلبة

* * *

الحياة الكتابية

فنون الكتابة كثيرة ، فأية كتابة عندنا وأى كتّاب ؟ نقول فى الجواب إنه يوجد عندنا الكاتب الاجتماعى والمؤرخ

والصحف .... فقد نشر فى تونس فى هاته السنوات الأخيرة كتب بعضها فى التاريخ ككتب الأساتذة حسن حسين عبد الوهاب، وعثمان الكعاك، وأحمد توفيق المدنى؛ وبعضها فى الأدب والاجتماع، ككتاب أبى القاسم الشابى عن الخيال الشعرى، وكتاب الطاهر الحداد عن المرأة، وكتاب محمد المرزوقى عن مسائل من الفن والجمال. وهناك خمس صحف أسبوعية، وجريدتان يوميتان، ومجلة أدبية لم يستطع صاحبها أن ينفخ فيها الحياة، فهى تحتضر منذ سنوات! وعدا ذلك فليس فى تونس من يمثل تمثيلاً مشرفاً أدب القصة والمسرح، وأدب الأطفال، والأدب القومى؛ وكذلك الناحية النقدية والعلمية فى الأدب. وتاريخ تونس لما يكتب.

فصفة الكاتب عنيت بها ما يفهم من لفظها اجمالاً واطلاقا، أما اذا عنينا بالكاتب رجلاً له نظريات خاصة، وأفكار فردية، يخصص حياته لنشرها والدفاع عنها حتى تنتصر، كلفه ذلك الدفاع ما كلفه، فهذا عزيز فى الناحية الأدبية. فاذا قلنا مثلاً إن طه حسين كاتب، فليس معنى ذلك فى مذهب العقل والتاريخ أنه يجيد رصف الجمل وتأليف الكتب، وانما معناه أنه رجل يفرض فكرته على الناس فرضاً، ويكتب ما يراه حقاً وإن خالف ما رآه غيره، ولا يضيره أن يواجه قراءه بغير ما ألفوا سماعه، ويصدمهم بآراء ليست هى آراءهم التى اقتنعوا بها؛ وبعبارة أشمل يرفعهم اليه، ويبعثهم على التفكير والتأمل واعادة النظر فيما ناموا عليه من المبادئ والحقائق؛ وما يزال بهم حتى يكوّن من أنصار فكرته ومخالفيها مدرسة تنشر تعاليمها وتصادم تعاليم خصومها. فهذا هو الكاتب الذى يحيى الأدب ويجدد الأدب، وبهذا وحده يكون الكاتب مثقف عقول، ومغذى عواطف، وقائد أفكار

أما فى تونس فالقارىء هو الذى يقود الكاتب. فعلى الصحفى أن يصلح مايحب الرأى العام أن يصلح، ويجتنب ما يغضبه ويهيجه. وعلى الكاتب أن يكتب ما يريد قراؤه، وأن يتناول من المواضيع ما يسمحون له بتناوله؛ وحذارِ أن يكون له رأى خاص يخالف رأيهم — وإذا كتب فى نقد الأدب القديم فالواجب أن تكون كتابته تقديساً لأصحاب ذلك الأدب، وكلمة الالحاد وما اشتق منها ما تزال وأنجة الاستعمال تُلصق بكل من يظهر نوعاً من الاستقلال الفكرى فى الأدب؛ وجمهور القراء لم يحسن إلى الآن التفريق بين ما هو أدبى وماهو دينى، فكلّ أديب يقول بالتجديد الأدبى فهو متهم فى عقيدته. فكانت نتيجة هذه الحالة فقر أدبنا من الكتاب ومن كثير من فنون الكتابة

معاهد الثقافة والمؤسسات

وأول مسؤول عن ركود الأدب فى تونس هى معاهده الثقافية ومؤسساته الأدبية، فانتشار الأدب لا يكون إلا بكثرة القراء، وعلى قدر نصيبهم من المعرفة والفهم يكون إقبالهم على تتبع الحركة الأدبية وتقويتها بشراء كتبها ومجلاتها. ونحن نريد أن ينتشر الأدب وتقرأ كتبه ونشراته، لأننا فى حاجة إلى تقويم العقلية التونسية وتثقيف ذهن سائر الطبقات، وتصحيح المقاييس التى نقيس بها كل شأن من شؤون الحياة؛ وليس شيء كالأدب يحيى ميت الهمم ويبعث خامل العزائم ويشذّب شاذ الغرائز؛ وكل مدنية قامت فى التاريخ كانت منبعثة من نهضة أدبية أو مصاحبة لها

فما هو نصيبُ معاهدنا فى هذا العمل وماذا نرجو منها؟

أما المدارس الابتدائية فلا رجاء فى أبنائها لأن المعلومات العربية التى يخرجون بها من هاته المدارس لا تؤهلهم لقراءة الكتب الجدية ومطالعة الصحف الراقية، وهم حين يغادرون المدرسة يرجعون إلى أشغال آبائهم فى القرى والبوادى، وليس لهم من الثقافة إلا ذلك النزر القليل الذى يمكنهم بعض التمكن من قراءة رسالة أو كتاب عامىّ سخيف من تلك الكتب الملوءة بالخرافات والأوهام

أما المعاهد الثانوية والعالية فهناك جامع الزيتونة الأعظم والمدرسة الصادقية والمدرسة العليا للآداب واللغة العربية. فأما جامع الزيتونة فهو حصن العربية الأشم، وهو بمثابة الأزهر بمصر، وخريجوه هم صفوة العلماء والحكام والقضاة والعدول، وهم الطبقة الوحيدة ذات الثقافة العربية المحضة؛ وأما المدرسة الصادقية ومدرسة اللغة والآداب العربية، فان الدراسة تقع فيهما باللسانين، وربما غلبت فيهما الثقافة الفرنسية على العربية خصوصاً من ناحية الترجمة والعلوم الرياضية، ومن هاتين المدرستين تخرج جلّ كبار موظفى الادارة الفرنسية ومترجميها، وعن طريقهما

سافرت البعثات العلمية التي تتكون اليومَ منها نخبة طيبة من الأطباء والمحامين والمهندسينَ ، ولكن أطباءَنا ومحامينا قلما يكتبون أو يؤلفون بالعربيةَ . وكم كنا نود لو أن دكاترتنا كانوا كدكاترة مصر الذين قامت على سواعد أكثرهم نهضة مصر الأدبية والعلمية

أما المؤسسات الأدبية فهناك الجمعية الخلدونية ، وهي أقدم المؤسسات التونسية ، ثم جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقية ، وأخيراً جمعية الكتاب والمؤلفين — فأما الخلدونية وقدماء الصادقية فأغلب نشاطهما منصرفٌ إلى تنظيم المسامرات الأدبية والعلمية ، وإقامة الحفلات لاحياء ذكرى نوابغ الأمة العربية في القديم والحديث ؛ وأما جمعية المؤلفين والكتاب التونسيين فانها افتتحت أعمالها باقامة حفلة ذكرى الشاعر العبقري المرحوم أبي القاسم الشابي . ثم لم تفعل بعدها شيئاً إلى الآن خصوصاً وقد علقت عليها آمال ضخام في انتشال البلاد من هذا الركود الأدبي بتوحيد جهود أدبائه وتسهيل نشر كتبهم بواسطة القروض التي تسبقها والدعاية التي تقوم بها للمؤلفات

أسباب ركود الأدب

إذن فأسباب ركود الأدب كثيرة ، ولكن يمكن تلخيصها في سببين :

الأول : قلة القراء في الأوساط الشعبية نظراً للأمية الغالبة على السواد . ثم جهل كثير من الشباب لغتــه القومية أو نزارة معارفه التي لا تسمح له بالاستفادة من الأدب والصحف الجدية

الثاني : عدم وجود من يأخذ بيد الأديب إذا هو أراد أن ينتج وينشر ، فطبقة القراء القليلة تزهد في كل عمل تونسي ، ولا تُقبل على تأليف تونسي ، كما تقبل على التآليف المصرية والشامية ، والصحف اليومية لا تقوم بأي مجهود لاستكتاب الأدباء ، وحمل القراء على المطالعة الأدبية ، وإذا نشرت شيئاً من الأدب فالأغلب أن يكون من الأدب السهل الرخيص

والخلاصة أن الأدب في تونس لا يعدو كونه هواية من الهوايات ، ولا يوجد الأديب المحترف ، وإن وُجد الصحافي . والمؤلف يقاسي الأمرين من فقدان الناشر والقارىء . وليس هناك من التشجيع للأديب ما يحمله دائب الانتاج والعمل . فلا مكافآت ، ولا جوائز ، ولا مجلات لنشر آرائه ، ولا حرية لمن أراد أن يفكر باستقلال ؛ والأصوات التي ارتفعت في تونس وترقب منها كلُ مخلص أن تكون في يوم من الأيام داويةً في العالم العربي خفتت وصمتت لتكاتف هاته العوامل عليها

رجاء

على أنه لا يسعني أن أختم هاته الكلمة دون أن أنوه بما يبديه الشباب التونسي في هاته المدة الأخيرة من النشاط والحيوية . فهناك جميات للشبيبة لا زالت توالي الجهود في إقامة الحفلات المختلفة وإلقاء المسامرات في مختلف المواضيع ، ونشر النشرات التي يرى القارىء من خلال سطورها هاته القلوب الفتية التي تتقد إيماناً بمستقبل الأمة التونسية ، وحباً لأدبها ولغتها القومية . وإنه وإن كان نشاط هاته الجميات مقصوراً على المواضم وفي أوساط مخصوصة ، فانا لنرجو أن توفق إلى تعميم هاته الحياة في كامل البلاد بكل وسائل النشر والدعوة ؛ فان الأمة التونسية لفي أشد الحاجة الى حيوية شبابها وعزيمته الصادقة وإعانه القوى باسترداد مجد تونس الزاهر وعصرها الذهبي

(رادس — تونس) محمد الحليوي

من الأدب الانكليزي

٣ – پرسى شــــلى
Percy - Shelley

تتمـــــة

بقلم خليل جمعه الطوال

تعريف للشعر والشاعر

لشلى نظرية فى الشعر طويلة لا يتسع مقالنا هذا لاستيعابها بكاملها ، تقتطف منها إحاطة بالموضوع من جميع نواحيه ما يأتى :

ليس الشعر بالحدث الطارىء الجديد على عواطفنا ولا من صفاتنا المكتسبة بطول التمرن والمران ، بل هو فينا غريزة فطرية كغريزة الجوع والنوم والكلام والألم ، وليس ما نبديه من الحركات المبهمة والاشارات الغامضة ، أو ما نفوه به من الكلام ويجيش به صدورنا من العواطف المضطرمة إلا أنواعا من الشعر فى أدنى مواضعه وأضيق حدوده . ولولا ما فينا من عواطف الشعر الهائجة الكامنة والثائرة الوادعة ، لما كنا نكتئب ونفرح لأوهى الصدمات وأدنى المؤثرات

وليس الشعر بعلم من العلوم التطبيقية كالهندسة والكيمياء وكالفلك والكهرباء وإلى ما هنالك من العلوم التى تعتمد على التجربة ولا تثبت إلا بالبرهان ، بل هو فن من الفنون الجميلة — وهى الرسم والموسيقى والرقص والغناء والشعر والبناء — التى تعنى بظواهر الأشياء وأشكالها دون باطنها ، وبجمالها وأعراضها دون جوهرها : وما الانسان إلا كآلة موسيقية تتعاقب عليها شتى الانفعالات الداخلية والمؤثرات الخارجية : فتتجاوب أوتارها لكل منها بنغمة خاصـــة تختلف عن سالفتها فى الدرجة لا فى النوع

لقد كان الانسان فى بدء أطواره يقلد مختلف الظواهر الطبيعية بحركاته وسكناته ، فكان كل من هزيم الرعد ، وهزيز الريح ، وزمزمة النار ، وخرير المياه ، وحفيف الأشجار ، وقد غردت فوقها الأطيار الجميلة الألوان والشجية الألحان ، يحدث فى نفسه انفعالات داخلية عديدة ، وشحنات كهربائية عنيفة ، لا يرى لها مخرجاً إلا فى فنٍّ من الفنون الجميلة ، ولكن الناس ليسوا سواءً فى الاستجابة لهذه المؤثرات ، فهم وإن تشابهوا فى نوع إحساساتهم إلا أن فيهم البليد الشعور ، وفيهم السريع الانفعال ، وهذا الأخير هو ما نسميه اصطلاحاً بالشاعر

والشعرُ يتكىء على الخيال كما يتكىء على الحقيقة ، ويعتمد على اللغة بمقدار ما يعتمد على الموسيقى والغناء . وليست هذه الأشياء فى مجموعها إلا من مكونات الشاعر الأولية ، وبمقدار حظه منها يكون حظه من الشاعرية

على أن أسمى مظاهر الشعر وأبينها هى تلك العواطف والانفعالات المنضوحة فى وعاء من الكلام الموزون المقفى ؛ ذلك لأن جمال اللغة وموسيقى الألفاظ ، أقرب الى الخيال وأعمل فى اذكاء النفس وارهاف الحس من التصوير والبناء ، ونغمة الآلة والرقص والغناء . ولكن هذه المفاضلة تحصر الشعر فى دائرة ضيقة ، لا تتسع لاستيعاب ذلك الخيال المشبوب وتلك العاطفة الوثابة اللذين لا يجدان لهما من منفذ آخر عدا الشعر المقفى إلا بالتلحين وبالحركات . ومن هنا كان تفرع الرقص والغناء عن الشعر الذى هو الأساس

الشعر هو تلك المرآة التى تنعكس عنها شتى الانفعالات النفسية التى يجيش بها الصدر ويهتاج لها القلب ؛ وبمقدار ما يكون لهذه المرآة من دقة الصنعة والاتقان يكون للشاعر من جودة الفن وغايته فى الابداع والاحسان

ولعل ضرورة الوزن والقافية للشعر انما جاءت من ضرورة الرقص والموسيقى للغناء . فأنت لا تكاد تنبس ولو ببيت من الشعر إلا وتختار لالقائه أجود التوقيع ، وتقرنه باشارات قد تكون فى الغالب مبهمة ، إلا أنها مع كل ذلك تدل على عاطفة كانت مكبوتة فظهرت ، وكانت هادئة فاضطربت

الشعر هو صورة الحياة فى حقيقتها الأزلية

والشاعر هو تلك الريشة التى تظهر بواسطتها هذه الصورة

والشاعرية هى القدرة على ابرازها فى أجمل ألوانها وأزهى أشكالها

الشعر هو الألمُ والسرورُ ، هو الكآبة والحبور ، والشاعر

هو ذلك الذى تضطرب نفسُه بين موجات الحزن ونغمات الفرح . بل هو ذلك الشعاع الذى يصقلَ النفسَ ويرهف الحس ويهذبُ الشعور

الشعرُ يهذب الأفرادَ والدرامة تُصلح سوآت المجتمع ، ولذا أحسن تاسو الايطالى إذ يقول : ليس من مبدع إلاّ الله والشاعر(١) ، وليس من مدنية إلا بالدرامة

ثورة شلى الفكرية

لقد تمرد شلى على الهيئة الاجتماعية وخرج على جميع نظمها وتقاليدها الدينية والمدنيــة ، فاتثال على الدولة والكنيسة بحملة متطرفة شعواء ، نقضت ما كان لهما فى نفوس الناس من الجلال والاحترام ، وكان يعلق كبير الأمل فى التخلص منهما ، وفى تحقيق مثــله الأسمى على تلك الأفكار الثورية التى تلقحت بها عقول الناس من كتابات فولتير وروســو ومنتسكيو ، والتى كظمت مدة ثم انفجرت بالثورة الفرنسية ، ولكن لشد ما أسف اذ رأى ما منيت به أفكار الثوار من الاخفاق

ولـما اندلعت نيران الثورة فى أسبانيا ونابولى وأثينا ثانية بدت له — فى عالم الخيال — بارقة أمل جديدة فى تحقيق مثله الأسمى ، فأخذ يتغنى بهمة الثوار ويستفز حميتهم بشتى القصائد الرائعة كقصيدة « نابلى » وقصيدة « هيلاس » ولكن الثورة اشتدت ووضعت أوزارها ، دون أن تحقق له غرضاً من أغراضه التى مات وهو مصر عليها برغم ما لقيــه من قوة السلطة وصدمة الحوادث

فكرة شلى عن الله

يرى شلى أن فكرة الانسان عن الله تشوه جماله كما يشوه الزجاج الملون منظر الأجسام التى من ورائه . وأنها فكرة خاطئة تناقض ومبادئ العدل والانسانية العليا . ويقول إن الله لم يخلقنا لكى يبعث بنا فى الآخرة أو يجزى شرورنا بمثلها لأنه رحيم لا حد لرحمته ، ولأن الانتقام من صفات الانسان وليس من صفاته وهو والحالة هذه يشبه عمر الخيام إذ يقول(٢) :

اذا كنت تجزى الذنب منى بمثله   فما الفرق ما بينى وبينك يا ربى

(١) هكذا فى الأصل Non merita nome di creatore, de non Iddio ed il poeta

(٢) راجع رباعيات الخيام

ويستأنف فى قوله إلى أن ليس لله كيان مستقل بذاته بل هو متمثل فى جميع مظاهر الكون وكائناته من انسان وحيوان . فليس ما نشعر به فى عواطفنا من عوامل الخير والفضيلة والاحسان والشفقة أو ما نشاهده فى الدودة التى تعيش فى باطن الأرض من المحبة والاطمئنان إلا من مظاهر ذلك الالــه العادل

لقد تصور شــلى فى الانسان اسمى ما يمكننا تصوره ، وراح يعرض هذه الصورة الجديدة على معاصريه المتزمتين بلسان عيى وخاق سرى ، بل بيد جذاء وكنانة جوفاء الأ من ذخيرة الايمان بدعوته . ولذا فلا عجب إذا وقرت دونه آذانهم ، بعد أن أذاقوه من لاذع النقد ومر التقريع شأن ما يلقاه أصحاب البدع فى كل جمهور متزمت

وفى عام ١٨١١ نشر رسالة مطولة : عنوانها « حاجتنا الى الالحاد » دعا فيها جميع الأساتذة الى الالحاد أو الى تفنيــد آرائه ودحضها بالمناقشة ، ولكنهم ألقوا بدعوته دبر آذانهم ثم طردوه من الجامعة هو و « السير توماس جفرسن » المتشرع المشهور لأنه استجاب لدعوته واعتنق جميع مبادئه

وفى عام ١٨٥٨ ألف « توماس جفرسن » كتاباً عظيما عن صديقه شلى أكسبه شهرة واســعة فى الأوساط الأدبية ، وقد نشره تحت عنوان (Uncomplete life of Shelliy) وهو يتضمن حياة شلى وتعاليمه مذيلة بشروح عظيمة لا نعثر عليها فى غيره

آراء الأدباء فى شلى

يقول روبرت براونتج : لقــد هاجم شلى مبادىء المجتمع العظيمة دون أن يتحقق صحيحها من فاسدها ، وغثها من سمينها ، ونسب الى الكنيسة والحكومة الشىء الكثير ، مما زرى بشأنهما ويحط من مقامهما فى أعين الناس . ولقد كان فى حملته التى شنها على العرف والعادات ، وعلى الشرائع والديانات ، يُقاد بتهور العاطفة لا بتمحيص العقل ، وبنشوة الشباب لا برصانة الفكرة ؛ وكان يلقى بأحكامه جزافاً قبل أن يعمل فيها مشرط العقل وقبل أن يعرضها على محك الاختبار

ويقول سوينبرن : إن إعجابى بشلى عظيم لا ينتهى ، وما ذاك إلا لفرط محبته الواسعة لجميع المخلوقات ، تلك المحبة التى تقرن اسمه بالمسيح ما دام فى الكون فقراء ومسا كين . لقد درس آراء افلاطون — ولا سيما كتابه Symposism — وتغلغل فى ثناياها

بأسمى ما عرفه الانسان من المثل العليا ، تلك المُثل التى صرف فى تحقيقها ريق العمر وزهرة الشباب فما أفلح

ويقول أرنولد : ثلاثة ينبغى تقـديسهم : بوذا لتضحيته ، والمسيح لحبته ، وشلى لانسانيته

ويقول بيكوك : مهما يكن من الحاد شـلى فانى أرى فيه مثال الدين الصحيح لاقباله على عمل البر وحـدبه على الفقراء . فقد شهدته مرة وقد ابتاع من أحد التـاجر مجهراً ، فما لبث أن أودعه لساعته عند تاجر آخر وأخذ مقابله قليلاً من المال ، ورأيته يركض بعـد ذلك بخطوات فسيحة لينقذ بائساً رآه فى وهدة الشقاء . وكانت تلك الـكمية صبابة ما بقى لديه من المـال .

حياته وزواجه :

دخل شلى مدرسة أتن عام ١٨٠٤ ، وكان لا يزال فى الثانية عشرة من العمر ، ثم تركها والتحق بجامعـة اكـسفورد حيث طُرد منهـا عام ١٨١١ بسبب رسالته الالحادية . وفى شهر يونيه من السنة نفسها تزوج « هاريت وستبروك » وارتحل الى بلدة « كزوك » هرباً من تعنت والده ، وهناك التقى « بسوثى » أحد شـعراء اقليم البحيرات البارزين . ثم أخذ يتعاطى مهنة الصحافة مع (وليم قودوين) السياسى الشهير فتشرب منه روح السياسة . وفى عام ١٨١٢ سافر الى ارلندا ودبلن حيث أخذ يؤلب الناس على الـكنيسة الرومانية ، فاستجاب له خلق كثير وأعرض عنه الباقون

وفى سنة ١٨١٣ ولدت له هاريت صبية دعاها « لانث » . ثم ارتحـل الى أدنبره وألقى هناك عصا التسيار مدة من الزمن ، كان يستجم فيها وبُعد المدة لحلة جـديدة يحمل بها على الدين والمجتمع معاً . وفى مستهل عام ١٨١٤ برزت هـذه الحلة الجديدة فى رسالته التى نشرها تحت عنوان « تفنيد وحدانية الله The refutation of deism » ، وفى العاشر من شهر ديسمبر اضطرب حبـل مودته مع زوجه هاريت ، فطلقها وتزوج من عشيقته مارى ولستونكرافت ابنة الصحافى الـكبير قودوين ، وبعدها سافر الى سويسرا ثم الى فرنسا ، وفى أثناء غيابه ولدت منه زوجه الأولى هاريت صبياً دعته شارل بيش . وما أن رجع من رحلته هذه الا وقد توفى جـده بيش شـلى فورث عنه أموالاً طائلة

وفى عام ١٨١٦ ولدت له زوجه مارى ولداً سماه وليم شـلى إلا أنه لم يُعمر طويلاً بل توفى بعد عامين من ولادته . وفى شهر ابريل التقى بكيتس لأول مرة ، وكانت قد اشـتدت روابط الصداقة بينه وبين اللورد بيرون

وفى العاشر من شهر ديسمبر ألقت « هاريت بنفسها فى اليم وما أخرجت من الماء إلا وهى جثة هامدة . وهكذا أصبحت مارى ولستونكرافت زوجه الشرعية »

وفى عام ١٨١٧ سافر إلى إيطاليا وأقام هناك ، وكانت محكمة شانسرى قد حرمته من حضانة ولديه من زوجه الأولى (هاريت) . وفى ايطاليا تفرغ شلى لقرض الشعر ولدراسة الآداب دراسة جدية

وفى الثامن من شهر يوليو لعام ١٨٢٢ بينما كان يسبح فى خليج بيزا لقيه اليم بموجة عظيمـة كان فيها حتفه إذ ألقته على الشاطئ جثة هامدة . ثم أحرقت جثته فوق رمال ذلك الشاطئ على مشهد من صديقه اللورد بيرون ووضع رماده فى قبر أُعدَّ له فى روما . وكان قد أوصى فى حياته بألا ينقش على ضريحه إلا تاريخ ولادته ويوم وفاته والـكلمة الآتية : Désillusionné ومعناها غير مغرور

وفى بعض المصادر نجد أنه أوصى بنقش هاتين الـكلمتين لا الأولى وهما قلب القلوب Heart of Hearts ولعل الأولى أقرب إلى الصواب

وهكذا طوت الأيام تلك الصفحة المجيـدة المملوءة بجليل المآثر والحافلة بعظيم الأعمال

خليل جمعه الطوال
(شرق الأردن)

مصادر المقال

1— Shelley : I Adonais. II Revolt of Islam. III Promethus un baund
2— Maculay : Essay on Shelley
3— Becon : His Essays.
4— Harjlitt : Critic sms, of poetry and drama
5— Stopford : English literature VI. II
6— Browing : Essay on Shelley
7— W. H. Stepheus : Introduction to the Study of English Literature
8— Bagchat : Essay on Shelley
9— Hughes : The Introduction to Shelley prose and poetry
10 رسالة الغفران للمعرى تأليف الـكيلانى

فاز سعد !

للأستاذ عباس محمود العقاد

عرف النفيَ حياة ومماتا   وأصاب النصر روحا ورفاتا
كلما أقصوه عن دار له   رده الشعب إليها واستماتا
كيف يجزيه افتياتا وهو مَن   كان لا يرضى على الشعب افتياتا
أصبحت دارك مثواك فلا   تخش بعد اليوم يا سعد شتاتا
حبذا الخلد ثماراً للذى   غرس المجد ونمّاه نباتا

* * *

كل أرض للمصلى مسجد   غير أن الكعبة الكبرى مقام
هكذا قبرك مرفوع الذرى   فى جوار البيت أو سفح الأمام
أرض مصرٍ حيث أمسيت بها   فبنو مصر حجيج وزحام
غير أن الذكر يبغى منسكا   مثلما يبغيه حج واستلام
فالق فى قبرك خلداً كلما   مرّ عام تبعته ألف عام

* * *

اعبر القاهرة اليوم كما   كنت تلقاها جموعا ونظاما
ساعة فى أرضها عابرة   بين آباد طوال تترامى
ساعة من عالم الفردوس لا   تشبه الساعات بدءاً وختاما
كل من شاهدها زِيدَ بها   من معانيك جلالاً ودواما
قل لهم أبلغَ ما قلت لهم   أيها الواعظ صمتاً وكلاما

* * *

جرّدوا الأسياف من أغمادها   ذاك يوم النصر لا يوم الحداد
ارفعوا الرايات فى آفاقها   أين يوم الموت من يوم المعاد ؟
لا يلاقى الخلد بالحزن ولا   يكتسى الفتح بجلباب السواد
ذاك يوم ما تمناه العدى   بل تمناه ولاء ووداد
فانفضوا الحزن بعيداً واهتفوا :   فاز سعد وهو فى القبر رماد

* * *

الفراعين الأولى أجليتهم   لتمنوا لو أجازوك الطريق
أنت أضفيت على أوطانهم   سعة ، وهى من الأسر مضيق
أنت أيقظت لهم تاريخهم   وهو فى نومته لا يستفيق
فضلك اللاحق أحيا فضلهم   فاستوى منه طريف وعريق .
آية فى الحق لا ينسخها   فى مدى الدهر عدو أو صديق

* * *

يا بنى مصر اجعلوا نقلته   رمز أحياء وعزم ومضاء
وانظروه كيف حالت دونه   غِيَرٌ شتى ، وما حال القضاء
الميقون تنحوا جانبا   آخر الأمر ، وسعد فى البناء
كل ذى حق سيعطى حقه ،   ليس للمجد من الخلد نجاء
كل ما عارض سعيا باقيا   عَرَض فانٍ وزور ورياء

* * *

ترمز الشمس إلى نقلته   بسفور غالب بعد حجاب
صرعت ليلين صبحاً فروت   عن حضور ناصع بعد غياب
هو أيضا قد طوى ليل الردى   وطوى ليل الغواشى والكذاب
فى السموات وفى الأرض له   أثر ينبئ عن يوم المآب
أثر الفجر إذا انجاب لنا   عن ضحاه ، بعد لأيٍ وغِلاب

* * *

دان يا سعد لك الذكر بما   شيد البانى وما خط الزبور
قدر نادى فلبته على   موعد الذكرى صخور وسطور
أنا بان لك فى ملك النهى   منزلاً يبقى ولا تبقى الصخور
من أسانيدك آساس له   ومن الحق له حسن ونور
إن أنل شأوك فيه إننى   بالذى شيَّدت منه لفخور

* * *

فتية الوادى بسعد فاقتدوا   إن تخيرتم له خير وفاء
أذكروه بالذى يعمله   منكم العامل فى غير وناء
واذكروه بالذى امتاز به   من مزاياه الأبيّات الوضاء
هكذا يخلد سعد بينكم   بتماثيل حياة ورواء
كل ما يعظم من أعمالكم   هو تخليد لذكرى العظماء

كل بيت فيه سعد ماثل

للأستاذ على الجارم

اكشفوا الترب عن الكنز الدفين
وارفعوا الستر عن الصبح المبين

وابعثوه عسجداً مؤتلقاً زاد فى لألائه طول السنين
واجتلوه درة ساطعة صدفُ الدهر بِشَرْواها ضنين
وانتضوا من غمده سيف وغى كان إن صال يقد الدارعين
وقناة جل من ثقفها للخفاظ المر والعزم المكين
لوت الدهر على باطلة وهى كالحق صفاة لا تلين
هزمت جيش الأباطيل فما غادرت غير جريح أو طعين
كتب الله على عاملها إنما الخلد جزاء العاملين

* * *

جدث ضم سناء وسنى ومُصاص الطهر فى دنيا ودين
طاعة الأملاك فيه امتزجت فى السموات بعز المالكين
فتشوا فى الترب عن عزمته وعن الأقدام والرأى الرصين
واخفضوا أبصاركم فى هيبة إن رأت أبصاركم نور اليقين
واخشعوا بالصمت فى محرابه أفصح الألسن صمت الخاشعين
وانتحوا من قبره ناحية
واحذروا أن تزحموا الروح الأمين

وحنانا بضريح طالما صقلته قبلات الطائفين
وجثت مصر به خاشعة تذرف الدمع على خير البنين
صيحة قدسية إن سكتت فلها فى مصر رجع ورنين
وعرين حل فيه ضيغم رحمة الله على ليث العرين
ومضاء عرفت مصر به إن للحق يميناً لا تمين
لا أرى قبراً ولكنى أرى صفحة من صفحات الخالدين
أو أراه قصب المجد الذى دونه ينفق جهد السابقين
أو أراه علماً فى فدفد لمعت أضواؤه للحائرين
أو أراه روضة إن نفحت خجل الورد وأغضى الياسمين
أو أراه دوحة وارفة نشرت أفياءها للاجئين
أو أراه قلب مصر نابضاً بمنى تمحو من القلب الأنين

* * *

نقلوا التابوت تحتفُّ به رحمات من شمال ويمين
ذاك بعث حييت مصر به من جديد تلك عقبى الصابرين
هل علمتم أن من واريتم فى حنايا كل مصرى دفين
ما لسعد حفرة واحدة هو ملء القلب ملء الأرضين
كل بيت فيه سعد ماثل فى إطار من حنان وحنين
بسمة الآمال فى بسمته وانبلاج الحق فى ضوء الجبين
هو للأبناء عم وأب وهو للآباء خل وخدين
كان سعد علماً منفرداً هل يرى للشمس فى الأفق تنين
إن أم المجد مقلاة فكم سوفت بين جنين وجنين
تبخل الدنيا بآساد الشرى أيها الدنيا إلى كم تبخلين
أنت قد أنجبت سعداً بطلاً وقليل مثله من تلدين
قاد للمجد مناجيد الحمى كلهم أروع منبتُّ القرين
تقرأ الأقدام فى صفحته مثلما تقرأ خط الكاتبين
كلما مرت به عاصفة زعزع مرت على طود ركين
تقرع الأقدار منه عزمة أنفت صخرتها أن تستكين
حُشُدٌ حول الرئيس (المصطفى) نبعة الاخلاص والخلق المتين
وجدت مصر به واحدها رب فرد بألوف ومئين
ومن الناس نضار خالص ومن الناس غثاء وغرين
ومن الناس أسود خدر ومن الناس ذباب ذو طنين
وضعت مصر به آمالها فاستقرت منه فى حصن حصين
مسح الدمعة من أجفانها ومحا من لوعة القلب الحزين

* * *

أيها الربان أبحر آمناً وثق الركب بربان السفين
كل ما حولك رهو هادىء والبقيات على الله المعين
لاحت الفرصة فى إبانها إنها لا ترتجى فى كل حين
فتقدم بطلاً جم المنى أنت بالنصر حرىٌّ وقمين
صدق الله تعالى وعده إنما الفوز ثواب المخلصين

على الجارم

القصص

قصة مصرية

الأعمى . . .

بقلم محمود البـــدوى

تمر ترعة الكامل بقرية « س » وهى قرية صغيرة من قرى الصعيد، فتشطرها شطرين غير متساويين، فقد جارت على الجانب الأيسر بقدر ما أضفت على الأيمن، فاتسع هذا واستفاض حتى أصبحت منازله وبساتينه ونخيله وأعنابه لا يحدها البصر ولا يحصرها العين، واستدق ذاك واستطال حتى قامت منازله الصغيرة على شط الترعة ذليلة منكسرة واجمة، تشكو الى الله ظلم الطبيعة بعد أن شكت جور الانسان الذى خلفها سوداء قذرة تمرح فيها الحشرات من كل لون وجنس

وإذا استقبلت القرية وأنت قادم على جسرها الطويل، بصرت أول ما تبصر بمنزل صغير من هذه المنازل بنى بالطوب الأسود، وخط جواره بستان، ليس فيه سوى نخلتين : مالت إحداهما على الترعة، حتى غرقت فروعها فى الماء، وسمقت الأخرى فى الجو، حتى ناطحت بسعفها السماء، ولا تدر النخلتان ثمراً الآن، ولا يرجى منهما شيء فى المستقبل، فقد جف عودها وذهب شبابهما. وتقيم فى هذا المنزل منذ أكثر من تسعة أعوام أرملة فى الخمسين، وهى امرأة دمثة الطبع — على خلاف العجائز من مثيلاتها — ناحلة الجسم معروقة العظم واهية البناء، تستريح فى بيتها معظم العام، حتى يهل رمضان، فاذا هل، خرجت فى الهزيع الأول من كل ليلة حاملة على ذراعها صفيحة قديمة تطوف بها على منازل القرويين، وهى تنقر نقراً خفيفاً، وتغنى بأغنية قديمة، قل من يدرك معناها ومبناها من سكان القرية ! على أنهم كانوا يهبون من مضاجعهم عند ما يصافح سمعهم إيقاعها وغناؤها ويبسطون موائد السحور، وان كان الليل لم ينتصف بعد !! وهذا العمل الضئيل لا يجلب لها فى الغالب رزق شهرين أو ثلاثة، فكيف تقتات باقى العام ؟ وكيف تعيش ؟ هذا هو السؤال ! على أن الذين انحدروا من الريف، يعرفون تمام المعرفة أن هناك الملايين من أمثالها يضمون دائماً أيديهم على بطونهم ليحفظوا بذلك التوازن الاجتماعى لتخمة الأغنياء. مثل هـذه الأيم السواد الأعظم من الفلاحين الذين لا يعرفون وخير لهم ألا يعرفوا، أنهم أتعس المخلوقات البشرية فى الدنيا جمعاء. إنهم مخلوقات ذليلة تاعسة، لصقوا بالأرض حتى أكلتهم الأرض، وأفنوا عصارة حياتهم فيها حتى استنفدت قوتهم واستفرغت جهدهم. ولو رأيتهم وهم عائدون من الحقول مع مغرب الشمس، والصفرة الباهتة تعلو وجوههم، والغبار القذر يملأ أعينهم ويسد أنوفهم، لعلمت أنهم أتعس الناس فى الناس، وأشق الطبقات العاملة على الاطلاق. إنهم مخلوقات مريضة فقـدت بهجة الحياة ونعيمها واستسلمت صاغرة للمرض والفناء

ويسكن مع هـذه الأيم أعمى فى الثلاثين من عمره، وهو شاب أسمر فارع ضليع الجسم مفتول العضل وثيق التركيب، وهو المؤذن لمسجد القرية منـذ أن شب عن الطوق وانخرط فى عداد الرجال. على أن الذى جمع بين هذه الأيم العجوز وهذا الأعمى الشاب، لم يكن قرابة ولا نسبا، وان كان القرويون يسمون العجوز « أم سيد » وسيد هو الأعمى ؛ وكانت المرأة تمتعض وتهتاج لهذه التسمية فى أول الأمر، وهى التى لا « سيد » لها، ثم ما لبثت أن استراحت لها على مرور الزمن فقر هائجها وسكن، حتى تعمدت ألا تدفع هذا القول بما يكذبه، وهى المتيقنة بأن الجدل فى أمثال هذه الأمور غير مجد فى الواقع. فمن الذى يقف فى وجه التيار الجارف ؟ ومن الذى يمكنه أن يمنع ألسنة الناس الطويلة جداً الى حلوقها ؟ لا أحد على التحقيق

على أن المنزل لم يكن للعجوز والشاب فى الحقيقة، وإنما هو لرجل ملاح يعمل فى النيل ويقضى فيه العام كله. ولا يهبط القرية إلا زمن التحاريق، فاذا جاء، بات فى سفينته، فقد ألف الرجل النيل، ونسى منزله على توالى السنين

وكان المسجد الذى يؤذن فيه الأعمى فى طرف القرية الشمالى ، ولكى يبلغه لابد له أن يجتاز الترعة وعليها جسر ضيق ، يجوزه المبصر وهو راجف حذر ، فكيف بالأعمى ، ثم يدور بعد ذلك فى دروب وينعطف فى منعطفات ، ويجتاز بساتين من النخيل يكثر فيها الحسك والشوك ، وعلى الرغم من هذا كله ، فان الرجل كان يبلغ المسجد وكأنه المبصر الحديد البصر ، فلا يضل ولا يتباطأ فى سيره ؛ ولا يعتمد على حائط ، ولا يستند الى جدار ، وشد ما تعجب لذلك وتدهش ؛ على أنك متى سمعت القرويين وهم يقولون إن الرجل يبصر بقلبه ذهب عنك العجب كله

وإذا طلع الفجر على القرية ، وهى غارقة فى سبات عميق ، وكل شيء فيها ساكن هاجع ، فلا نأمة ولا حركة ، اللهم إلا سامقات النخيل وهى تترنح مع النسيم الوانى ، وسيقان الزرع وهى تتمايل مع الريح الرخاء ، طلع الأعمى الى سطح المسجد ، وانطلق يؤذن فى صوت حلو النبرات عذب الرنين ، ينفذ الى كل قلب ، ويهفو الى كل أذن ، ومن الذى يسمعه وهو يقول : « حى على الصلاة ! » فيتأخر بعد ذلك عن الصلاة ؟ لقد كان صوته لينا شجياً يرن فى سكون الليل جميل اللحن عذب الرنين ، فيهب له القرويون من مضاجعهم ، ويخفون الى المسجد خاشعين صامتين

وكان الرجل محبوباً من أهل القرية جميعاً إلا النساء والأطفال . أما النساء فيكرهنه لأنه يزجرهن عن بئر المسجد ، ويمنعهن من ملء الجرار منها بقسوة وغلظة ، حتى ينقلب صوته الحنون عند محادثتهن الى صوت أجش خشن مرعب أحيانا ! والقرية لا تستغنى عن ماء البئر خصوصاً زمن الفيضان عند ما يصبح الماء عكرا نصفه طين . وكم تنقلنه سرارا ، وهو الأعمى وهن النجل العيون ! على أن سمعه المرهف دائماً كان يغيظهن أشد الغيظ ! ؛ فاذا أدلت إحداهن الدلو فى البئر وحركت « الجبيذ » (البكرة) ، وهو خشبى يحتاج للسقى بالزيت ليحبس صوته فى جوفه ، صر هذا ، فيمد الأعمى قامته ويقول بصوت جاف :

« مين ؟ »

فيتركن الدلو والجرار ويرحن يصلصلن بالحلى ، ويطرن على وجوههن هاربات ، وقد تقع إحداهن على وجهها ، فتخوض فيها الأخرى من فرط الرعب ، ويقمن وجلات مذعورات ضاحكات أيضاً ، على أن هذا لم ييئسهن من البئر اليأس كله ، فهن يعلمن أنه يتروح بعد العشاء ، فاذا بصرن به خارجا من المسجد انطلقن الى البئر وهن راجفات أيضاً . فشد ما كانت تخيفهن عصاه الغليظة وإن كانت لم تصافح إحداهن حتى الآن .

ومن هنا نشأت العداوة بينه وبينهن واشتدت مع الزمن

أما الأطفال فكانوا كلما بصروا به على الجسر ، وهو فى طريقه الى منزله ، تقوده عصاه ، وصدره الى الأمام ، وسمعه مرهف ، ورأسه مستو ، وقامته منتصبة ، وخطواته ثابتة متزنة جروا وراءه يسبونه ، وقد يحصبونه بالحصى أو يرمونه بالحجارة ، وهو صامت باسم لا يلتفت اليهم ولا يكلم أحدا منهم ، حتى يقرب من بيته ، وهنا يطلع عليهم كلب للجيران أسود ضخم ربض دائما على الجسر ، فينطلق وراءهم حتى يشردهم فى الدروب . وشد ما غاظ هذا الكلب الأطفال حتى تسمعهم يهمسون خوفا من أن يسمعهم الكلب « لولا هذا الكلب .. ابن الكلب .. لكان الأعمى ... » وإن كانوا يقررون بينهم وبين أنفسهم أنه قلما كانت تصيب الرجل حصاة واحدة من كل ما يرمونه من حصى وحجر

ولم يكن لهذه العداوة سبب ظاهر فى الحقيقة ، اللهم إلا الطبع الشرير الذى ينزع بالأطفال الى السوء ، ويحبب لهم أذى الضعفاء من الناس

* * *

تأخر الأعمى مرة فى المسجد حتى زحف الليل ، وتكاثف الظلام واشتد ، فسمع وهو راقد فى ركن من أركان المسجد صوت الدلو فى البئر ، فاستوى على قدميه ، ومشى على أطراف أصابعه كاتما أنفاسه ، وصدره يضطرب ، وجسمه كله يهتز ، حتى جاز صحن المسجد ، وتيامن الى البئر ، وقلبه واجف . وكان قد خفت صوت الدلو ، ووضح صوت « الجبيذ » فقال لنفسه ، لابد أن امرأة تجذب الدلو الآن وهى مشتغلة به فلا تسمع خطوات قادم ... ووقف برهة ثم صاح بصوت خشن :

« مين ؟ »

فاستدارت المرأة وحملقت فى الظلام . أواه . . . إنه سيد الأعمى على مدى ذراعين منها ، ورمت الدلو وأذهلها الموقف المرعب عن ابداء حركة ما ، فوقفت فاغرة فاها ، ثم أسعفتها غريزة الهرب بعد ثوان ، فولت هاربة . فسمع وقع أقدامها تجرى وراءها ، وسمعه إلى خطاها ، وجرت حتى جاوزت المسجد . وبودها لو تصيح بأعلى صوتها ، ولكن من أين لها القوة على ذلك ؟ وكيف يطاوعها الصوت ؟ وعثرت قدمها بحجر فى الطريق فكبت على وجهها مذعورة ، وأنت عند ذلك أنة قوية ، فجرى

على الصوت وأهوى بيده العمياء ولمس كتفها ، وكان قد بلغ منه الجهد فوقف يلهث ويده ممسكة بكتفها ، ثم أنزل يده حتى قبض بعنف على رسغها ، وقامت المرأة متراجعة ، تود لو تفلت منه بكل ما تستطيع من قوة ، ولكنه ضغط على يدها بشدة ، وتحسس بيده الأخرى وجهها وقال فى صوت متزن :

« جميلة . . . ؟ »

« . . . . »

ووقفت المرأة صامتة تهتز وترتجف

« لم لا تناديني لأملأ لك الجرة ؟ »

وقد رق صوته جداً ، فدهشت من تطور حاله وصمتت

« لـماذا ؟ »

فشجعها صوته اللين وأجابت

« إنك لاتسمح لأحد بالدنو من البئر ... فكيف أناديك ؟ »

« ليس لواحدة أو اثنتين . . . وإنما عند ما يجئن بالعشرات فتقطعن الحبل ، وتمزقن الدلو ، وتهشمن خشب الجبيذ ... فى البلد أكثر من أربع آبار قريبة ، فلماذا تجئن الى هنا دائماً . . . ؟ »

« لأن هذه أعذبها ماء . . . »

« هذا الـماء العذب كثيراً ما ينزح . . . »

« النيل فى فيضانه والـماء كثير ... »

« أجل ... أ ... أ ... ولـكن ... أملأت الجرة ؟ »

« نصفها . . »

« سأ كلها لك »

وانقلب إلى البئر ، فمشت وراءه مطمئنة ، وأدلى الدلو وهو يحس بعض الاضطراب ، فأخذ يدير الجبيذ بسرعة ليملأ لها الجرة ويصرفها عنه ، ويبعدها عن وحدته وسكونه

وقال وهو يفرغ الدلو بصوت خافت لين الخارج :

« إذا جئت مرة أخرى ... ناديني لأملأها لك »

« كثر خيرك »

وساعدها على حمل الجرة ، وانطلقت بها الى بيتها ، ووقف ينصت إلى هزيم الريح القوية فى الحقل البعيد

* * *

وأخذت جميلة بعد هذه الليلة تتردد على البئر دون خوف أو وجل ، كانت تجىء فى كل يوم مرة ، عند مطلع الفجر أو بعد أذان العشاء ، لأن زوجها لا يسمح لها بالسير فى طريق القرية إلا بعد أن ينام الناس ، وتنقطع الرجل . . فهى فتاة فى رونق صباها رائعة الحسن غضة العود وزوجها يخشى عليها العين ! ولا يحب لها ملاقاة شبان القرية الذين يقفون على رأس الطريق فى ساعات معينة من النهار ! وكانت تقابل سيد الأعمى فى غالب الأوقات التي ترد فيها البئر ، وكثيراً ما أترع لها الجرة ، وأعانها على حملها ، أو ملأ لها الحوض الصغير الذى على يمين البئر لتغسل وجهها ورجليها قبـل ذهابها الى بيتها ، وكانت تطوى كميها الى مرفقيها ، وتحسر شالها عن شعرها ، وترفع ثوبها الى ساقيها وهى منحنية على الحوض تغتسل . كانت تفعل ذلك ، دون خجل أو حياء لأن سيداً أعمى

واستراح سيد على مرور الأيام لحضرها حتى أصبح يشعر فى الأيام التي تتخلف فيها بالانقباض والوحشة . كان يحس ، من أعماق نفسه ، أن شيئاً ينقصه ، شيئاً يستريح معه ، وينشرح له صدره ، وتنتشى حواسه ، وتهدأ ثائرة أعصابه

وكانت جميلة تدفعها غريزتها أول الأمر إلى الخوف منـه واتقاء شره كرجل ، بصرف النظر عن كونه أعمى ، ولـكنها ما لبثت — بعد الانفراد معه مرة ومرات — أن استراحت واطمأنت ووثقت من عفته وخلقه ، حتى كانت تخرج معه إلى حد المداعبة ، كأن تخفى عكازته ، أو تخلع الدلو ، أو تقطع الحبل ، أو ترشه بالماء ، وكان يضحك لهذا حتى يرقص قلبه ، ويلوح لها بعصاه مهدداً

على أن هذا التآلف الذى أصبح بين سيد وجميلة ، لم يشجع غيرها من النساء على القرب من البئر ، لأنهن كن لا يعلمن بتغير حاله ، وإن علمن لا يصدقن ، ولم يكن هو يزجرهن عن البئر ، ويمنعهن من ملء الجرار منها ، لأنه كان يخاف على الـماء فقط ، بل لأن شيئاً خفياً فى أعماق نفسه ، كان يدفعه إلى النفور منهن وابعادهن عن جوه ... دافع باطنى عجيب كان يخرجه عن هدوئه وسكونه ، عند ما يسمعهن يتحدثن على الـماء أعذب حديث وأرقه ، كان يرجف له ويضطرب ، وهو الرجل وهن النساء ... شعور باطنى غريب كان يحمله على فعل ذلك ولم يستطع تحليله ولا تعليله ، وهو الجاهل الذى لم يذهب إلى المدرسة ولم يدرس علم النفس . لقد قضى الرجل حياته بعيداً عن جو المرأة فأخرجها عن دائرة تفـكيره ، بعد أن خرجت عن دائرة وجوده ، ولم يعد يفـكر فيها مطلقاً ... لم يعد يفـكر فيها ، ولا يحن إلى لقياها ، ولا يستريح لرفقتها

البريد الأدبي

المؤتمر الدولي لنادي القلم

يعقد المؤتمر الدولي الرابع عشر لنوادي القلم في مدينة بوينوس ايرس عاصمة الجمهورية الفضية (أمريكا الجنوبية) في شهر سبتمبر القادم ، وتستمر دورة الانعقاد عشرة أيام من ٣ سبتمبر الى ١٣ منه . وقد اتخذ نادي القلم الأرجنتيني استعدادات عظيمة لعقد هذا المؤتمر ، وسعى جهـده لجمع أكبر عدد ممكن من مندوبي النوادي المختلفة في عاصمة الأرجنتين ولم يبخل في سبيل هذه الغاية بانفاق آلاف الجنيهات لتسهيل سفر المندوبين من بلادهم النائية الى أمريكا الجنوبية واضافتهم مدة انعقاد المؤتمر ؛ وقد استأجر لهذه الغاية باخرة خاصـة تقوم من مياه البحر الأبيض بجميع المندوبين الرسميين في أوائل شهر أغسطس القادم ، ثم تعيدهم الى نفس المياه في أوائل شهر أكتوبر ومنها يتفرقون عائدين إلى بلادهم

وكان يتضايق حتى من وجود أم سيد معه في منزل واحد .... وإن كان ينام بعيداً عنها ، ولا يلاقيها إلا نادراً — غالباً في الأوقات التي كان يرجع فيهـا الى البيت مبكراً ليتعشى — فـكان يتذمر ويضطرب لمحضرها ، وإن كان يمدها أماً . كان يرجف لوجودها معه ، ويحس بروحه تثور ، لأنه ما كان يحب أن يتصورها جالسة أمامه ترقبه وهو يمضغ الطعام ، ويقطع الخبز بأسنانه ، وكان لا يعود لهدوئه وسكونه إلا بعد أن يتنفس الصعداء في قاعته

ولـما اعترضت جميـلة طريقه أول مرة ، كان يحمل معه عصاه ليضربها ؛ ولـكنه لـما سمع صوتها عن قرب ، ووقف عند رأسها ، وأمسك بيده رسغها ، وصافحته أنفاسها ، تراجع ، وأيقن أنه أمام مخلوق لا يستحق الضرب :

وأخذ بعد ذلك يترقب حضورها ، ويتأخر في المسـجد عامداً ليعينها على حمل الجرة ، وعلأ أذنيه من صوتها

(لها بقية) محمود البدوي

وسيشهد نادي القلم المصري هذا المؤتمر الـكبير ؛ وقد اختار لتمثيله أحد أعضائه الدكتور محمد عوض الأستاذ بالجامعة المصرية وقد سبق أن مثل حضرته نادي القلم المصري في مؤتمر القلم الذي انعقد في مدينة ادنبورج باسكوسيا في صيف سنة ١٩٣٤

وسيعني المؤتمر يبحث جميع المسائل المتعلقة بالأدب والـكتابة وحقوق التأليف وحرية القلم ومسائل النشر وما إليها ؛ وتلقى فيه عدا ذلك عدة مباحث عالية من بعض المندوبين . وسيلقى مندوب مصر ما يناسب المقام

وهذه بعض المسائل المعينة التي سيعنى يبحثها المؤتمر :

(١) مهمة الـكاتب في المجتمع ، وما يستطيع نادي القلم أن يفعل في ذلك السبيل (٢) نشر المؤلفات الأدبية وتبادلهـا بين مختلف البلدان ، ومسألة التراجم ، والعلاقة بين المؤلفين والمترجمين ، والعلاقة بين المؤلفين والناشرين في الداخل والخارج (٣) مسألة إعانة الـكتاب المعسرين

ومسائل كثيرة أخرى تهم الأدب والـكتاب

تطور الفكرة التاريخية اليهودية

نشطت الخصومة السامية ، أعني حركة العداء ضد اليهود في الأعوام الأخيرة نشاطا ظاهرا وذلك لأسباب سياسية واجتماعية كثيرة لا محل لشرحها هنا . وقد أثارت هذه الحركة من جانبها نشاطا كبيرا في التفـكير اليهودي والآداب اليهودية ؛ ومما يلاحظ بنوع خاص أنه قد صدرت في الأعوام الأخـيرة عدة كتب جديدة عن تاريخ اليهود أشرنا الى بعضها في فرص سابقة ، وقد صدرت أخيرا ترجمة فرنسية لمختصر تاريخ اليهود الذي ألفه المؤرخ اليهودي الشهير سيمون دوبنوف بالروسية ؛ وهذا التاريخ في الأصل ضخم جدا ، ويقع في عشرة أجزاء كبيرة ، ويعتبر من أمهات التواريخ اليهودية التي صدرت في العهد الأخير ؛ وقد وضع سيمون دوبنوف لمؤلفه مختصرا في مجلد واحـد هو الذي ترجم أخيرا إلى الفرنسية تحت عنوان « مختصر التاريخ اليهودي منذ

نشأته حتى سنة ١٩٣٤ « Précis d'histore jinre des origines à 1943

وأهمية هذا المؤلف الجديد وما تقدمه فى الأعوام الأخيرة عن تاريخ اليهودية ترجع الى تحول النظرية التاريخية اليهودية ، فقد كانت هذه النظرية تقوم من قبل على أسس دينية وينوه فيها دائما عا للشعب الاسرائيلى من مركز دينى ممتاز ، وعا تذهب اليه التقاليد اليهودية القديمة من أن اسرائيل هو الوسيط بين الله والناس ، وأنه الشعب المختار ، الى غير ذلك من المزاعم الدينية القديمة ؛ أما هذه الكتب اليهودية الجديدة فقد كتبت من الناحية القومية ، ولوحظ فيها أن اليهودية هى جامعة قومية لا دينية ؛ ويرجع ذلك كما قدمنا الى انتعاش الفكرة القومية اليهودية إزاء اشتداد الخصومة السامية ، وما تلاقيه الصهيونية من المتاعب والمحن

وكتاب دوبنوف برغم إيجازه قوى واضح ، وقد ألم إلماما مدهشا بمواقف التاريخ اليهودى فى مدى ألفى عام

موسم سالزبورج الموسيقى

يقام فى سالزبورج بالنمسا فى كل صيف موسم فنى عالى للتمثيل والموسيقى . ومواسم سالزبورج شهيرة منذ أعوام طويلة ؛ وسالزبورج هى موطن موتسارت ، وما زالت بها أكاديمية موسيقية تحمل اسم الموسيقى العظيم . وسيكون موسم هذا الصيف الذى يعقد ما بين ٢٥ يولية و ٣١ أغسطس من أبدع وأروع المواسم المسرحية والموسيقية التى عرفها العالم فى الأعوام الأخيرة . ويكفى أن تعلم أن المشرف على تنظيم برامج هذا الموسم هو أعظم الفنانين والموسيقيين المعاصرين : ماكس رينهارت ، وارتورو توسكانينى ، وبرونو ڤالتر ، وفيلكس فون ڤاينجارتنر . وسيشمل البرنامج المسرحى تمثيل عدة من القطع العالمية الخالدة مثل « فيجارو » وموسيقاها لموتسارت . و « فيديليو » وموسيقاها لبيتهوفن و « أقطاب الغناء فى نورمبرج » لڤاجنر ؛ و « تريستان وازولدا » وموسيقاها له أيضاً و « اريفوس وازولدا » وموسيقاها لجلوك . و « ڤالستاف » وموسيقا لڤردى . وسيقود الفرق الموسيقية توسكانينى وڤالتر وڤاينجارتنر . ويشمل البرنامج الموسيقى عدة حفلات موسيقية بديعة لموتسارت وبيتهوفن ولزث وشوبرت وباخ وستقام فى نفس الوقت حفلات موسيقية دينية فى الكاتدرائية الكبرى

وتغص سالزبورج فى مثل هذا الفصل بالوافدين عليها من جميع أنحاء العالم . ولكن الأنباء الأخيرة تدل على أن احتشاد الوافدين فى هذا الفصل قد بلغ حداً لم تعرفه سالزبورج من أعوام بعيدة

عضو جديد فى الأكاديمية الفرنسية

من أنباء باريس الأخيرة أن الأكاديمية الفرنسية قد استقبلت عضوا جديدا هو لوى جيليه ، وقد انتخب فى الكرسى الذى خلا بوفاة الكاتب الشهير البير بينار ، وترجم سلفه فى اجتماع حافل من أعضاء الأكاديمية طبقا للتقاليد المعتادة . والعضو الجديد من طراز خاص من المفكرين يندر أن يوجد بين أعضاء الأكاديمية ، ذلك أن لوى جيليه رجل فن وناقد فنى فقط ، وهو منذ أعوام طويلة مدير لأحد المتاحف الباريزية . وقد اشتهر فى العهد الأخير بعدة مؤلفات قيمة عن الفن وتاريخه منها « تاريخ التصوير فى أوربا فى القرن السابع عشر » Peinture en Europe au XVII e Siécle و « تاريخ الفنون فى فرنسا » Hist, dés Arts en France وغيرها ، وهو من أشهر النقدة الفنيين فى نوعه ينقد الصور والتماثيل الحديثة ، ويكتب عن معارض الفنون رسائل قيمة

جوائز أدبية

منحت جمعية النقدة الفرنسيين المؤلفة من جماعة من أعظم الكتاب والنقدة « جائزة النقد » السنوية الى كاتبين كبيرين هما مسيو رنيه دومزنل ، ومسيو مارسل تيبو ؛ ولكل منهما فى النقد مواقف مشهورة ؛ وقد امتاز مسيو دومزنل بنوع خاص بدراساته لبعض أكابر كتاب الجيل المنصرم مثل موباسان وهيسمان وفلوبير . ومما يؤثر عنه أنه كان طبيباً بالمهنة فاستهواه النقد وتدرج فيه حتى اعتزل الطب ؛ وأما مارسل تيبو فهو المحرر النقدى « لمجلة باريس » الشهيرة

ومنحت جائزة الأدب الشعبى الى ترستان ريمى ، وهو من كتاب « الصعاليك » والعوالم السفلى ، وقد اشتهر بقصته « حى سان انتوان » وله عدة قصص أخرى تدور حول حياة الطبقات الدنيا فى باريس

الاقتصاد وسيلة لتحقيق السلام

يعانى العالم أزمات سياسية واقتصادية لا نهاية لها ؛ وتكاد النظم الاقتصادية فى بعض الأمم العظيمة تنهار ؛ وترى أمم عظيمة أخرى أن الحرب ربما كانت أفضل الوسائل للخروج من أزماتها ومتاعبها ؛ ويكد معظم الحكومات والساسة للخروج من هذه المآزق ، وقد نشر أخيراً أحد الكتاب الانكليز كتاباً طريفاً يدلى فيه برأى غريب لانقاذ الأمم من أزماتها ؛ وعنوان هذا الكتاب هو « فى وسع الأمم أن تعيش فى أرضها » Nations con liue at Home ومؤلفه هو المستر ولكوكس Willcox وهو عالم فى الاقتصاد الزراعى ، ويحاول المؤلف أن يرد فى كتابه على السؤال الآتى : « ما هو أكبر عدد يمكن أن يعيش من منتجات فدان أو ميل مربع من الأرض الصالحة ؟ » ويرى مستر ولكوكس أن الجواب على هذا السؤال تتوقف عليه نتائج اقتصادية وسياسية خطيرة ؛ وهذا هو ملخص رأيه :

« إن أنجع الوسائل لتحقيق السلام الدولى ، وتقليل خطر الحرب إن لم يكن إلغاؤها ، هو تحسين الانتاج الزراعى إلى حد يمكن الأمم من أن تعيش فى أرضها ، ويبعد عنها خطر الجوع أو الحرمان ، وأن تستغنى إذا اقتضى الحال عن الموارد الأجنبية وما يلزم للرفاهة والحياة الناعمة »

ولقد تنبأ العالم الاقتصادى ملتوس منذ أكثر من قرن بما سيعانى العالم من وفرة السكان ونادى بنظرية ضبط النسل ؛ ولكن العالم فى أنحاء كثيرة لم يصل فى وفرة السكان إلى الحد الذى يدعو إلى القلق . بيد أن هناك أمماً قد وصلت فى ذلك إلى حد مزعج مثل ألمانيا واليابان وإيطاليا ، ويرى مستر ولكوكس أن تقدم الانتاج الزراعى هو خير علاج لهذه الأزمة

والكتاب علمى فى أسلوبه ومناحيه ، ولكنه واضح بعيد عن ذلك التعقيد الفنى الذى يذهب بكثير من قيمة الشروح والبيانات القيمة

الى الأستاذ محمد عبد الله عنان

لما استطردتم فى مقالكم القيم عن (البارون فون أوفنباخ) فى الرسالة ١٤١ إلى ذكر الماسونية وقلتم (إن لها أغراضاً خفية غير الأغراض الانسانية التى تتظاهر بها ، وإنها تعمل لغاية ثورية شاملة هى سحق الأديان والمعتقدات القائمة كلها ، وادماج الانسانية كلها فى نوع من التفكير الحر المطلق والمساواة الاجتماعية المطلقة) قرت عيون جمهرة القراء عندنا وعدوها لكم منقبة ، وباتوا يرقبون عودة منكم إلى هذا الموضوع ، لأن الناس لا يشكون من شىء عندنا ما يشكون من الماسونية . ولا يرون ظلما ولا إلحاداً ولا رذيلة إلا وللماسونية صلة به ، ذلك أن الماسونية عندنا ليست — على الأكثر — إلا شركات نفعية مؤلفة من أشخاص ليس لهم مبدأ معروف ، ولا غاية نبيلة ، ولكن مبدأهم ومنتهاهم جلب النفع لأنفسهم ودرء الضرر عنها ، ولو كان فى ذلك ضرر المجتمع ، وذهاب الفضيلة وهدم الدين ؛ يتعاونون على الخير والشر ، ويتناصرون على الحق والباطل ، ويدوسون كل المقدسات فى طريقهم إلى منفعتهم ، فيدافع القاضى عن المجرم ، ويتنكب سبيل العدل ، ويخون المعلم منهم فى الامتحان ، فينجح المقصر ، ويسقط المجتهد ؛ وإذا خلت وظيفة لم يعين العالم الكفء القدير ، ولكن يعين لها من له صلة بالماسونية التى يعتنقها من بيدهم أمر تعيينه ، ولو كان جاهلاً ، ولو كانت وظيفة رئيس المفتشين فى وزارة المعارف ، أو عضو الاستئناف فى وزارة الحقانية ، أو غير ذلك . . .

فهل هذه هى الماسونية ؟ وهل يتفضل سيدى الأستاذ فيجلو لنا غامضها ، ويكشف لنا خفيها ، فيبين منشأها وأصلها ومبادئها ، ويذكر لنا ما هى قيمتها اليوم فى أوربا وفى بلدان الشرق الأدنى ، وما هى علاقتها بالدين والوطنية فى فصل تخطه يراعته البليغة ؟

(دمشق) (ع)

ديوان حافظ ابراهيم

قررت وزارة المعارف العمومية طبع ديوان الشاعر الخالد حافظ بك ابراهيم . وقد ندب معالى الوزير لهذا العمل الخطير صديقنا الأستاذ أحمد أمين ، فكلفه أن يجمع أشعاره ثم يرتبها ويبوبها ويصححها ويشرحها ويقدم لها ويعلق عليها

وهذه مأثرة جليلة لوزارة المعارف نرجو أن يساعدها على إتمامها كل من عنده أثر من آثار الشاعر العظيم مما لم ينشر فى صحيفة أو يطبع فى ديوان فيرسل صورة إلى الأستاذ الشارح خدمة للأدب وبراً بالأديب

من هنا ومن هناك

آثار مصر القديمة منذ ٦٥٠ سنة

ألف الأديب الرحالة المصرى ابن فضل الله العمرى كتابه الموسوعى العظيم (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) منذ خمسين وستمائة سنة (هـ) فى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وظل الكتاب مخبوءاً فى زوايا الاهمال حتى أتيح بعثه على يد فقيد العروبة العامل الأستاذ أحمد زكى باشا سنة ١٩٢٤، والكتاب ذخيرة ثمينة حقاً، وهو لا يقل فى قيمته عن الموسوعات المصرية الثلاث الأخرى (صبح الأعشى، ونهاية الأرب، ولسان العرب)

ولعل أظرف فصل عقده المؤلف فى كتابه (حـ ١) هو ذلك الفصل الذى يتكلم فيه عن آثار مصر القديمة، وما كان الناس يفترضونه من تاريخها، وما يعللون به تشييد تلك المبانى الضخمة والهياكل المشيدة!

وقد وصف ابن فضل الله أهرام الجيزة فقال: « . . وهى أشكال لهيبة، كأن كل هرم لهبة سراج، آخذة فى أساقلها على التربيع مساوية فى عمود الهواء، آخذة فى الجو حتى إلى التثليث، لولا استدارة أبلوج السكر (قمع السكر!) لشبهناها به، ويحتمل أن يكون هذا الشكل موضوعاً لبعض الكواكب لمناسبة اقتضته . . » وذكر قبل ذلك سبب بنائها قال: « قيل إنها هياكل للكواكب، وقيل قبور ومستودع مال وكتب، وقيل ملجأ من الطوفان، وهو أبعد ما قيل فيها! » ثم يعلل أنها لم تكن ملجأ للطوفان بأنه شاهد بعض الأهرام فى مصر العليا مبنية من اللبن! وبعد أن يذكر بعض أقوال الشعراء فى صفتها ينتقل إلى أبى الهول فيقول: « . . . وهو اسم لصنم يقارب الهرم الكبير، وفى وهدة منخفضة تقع دونه شرقاً بغرب. لا يبين من فوق سطح الأرض إلا رأس ذلك الصنم وعنقه، أشبه شىء برأس راهب حبشى، عليه غفارية؛ على وجهه صباغ أحمر إلى حُوّة، لم يحل على طول الأزمان وقديم الآباد، وهو كبير، لو كان شاخصاً كله لما قصر عن عشرين ذراعاً طوله فى غاية مناسبة التخطيط!! يقال إنه طلسم يمنع الرمل عن المزدرع . . . »

ويسمى ابن فضل الله سلسلتى جبال العرب وليبيا (حائط العجوز!!) « وهو حائط يستدير بالديار المصرية ممتداً على جانب المزدرع بها كأنه جعل حاجزاً بين الرمل والمزدرع . . . » ويقول . . . « إنه من بناء امرأة اسمها دلوك . . . »

ومع هذا لا يرى ابن فضل الله أن يتورط فى ذكر الخرافات التى تقال فى سبب بناء دلوك لهذا الحائط فيقول: « ويذكر فى تلك الكتب — بسبب بناء العجوز له — خرافة لسنا نرضى ذكرها!! »

ويسمى المؤلف تمثالى ممنون بالقرب من وادى الملوك (شامة وطامة!!) ثم يصف البرابى فيبدع إبداعاً تاماً، وينتقل إلى الاسكندرية فيصف عمود السوارى، والمنارة، والملعب الكبير وصفاً يدل على ذوقه الفنى الدقيق!!

فلوبير وطريقة الكاتب

يعتبر جوستاف فلوبير (١٨٢١ — ١٨٨٠) الوارث الأكبر للمدرسة الابتداعية فى الأدب الفرنسى عامة، والوارث لبلزاك خاصة، وإن يكن هو من الكتاب الريالست، وإن يكن أيضاً يمتاز من بلزاك بطلاوة أسلوبه ونقاء عبارته وإشراق ديباجته، وعدم إسفافه . . . وهى مزايا لم يكن بلزاك يعرف شيئاً منها

ويشبه فلوبير فى شدة عنايته بأسلوبه شاعرنا الجاهلى زهير ابن أبى سلمى المعروف بصاحب الحوليات. فلقد كان فلوبير يأرق الليالى الطوال من أجل لفظة واحدة؛ حتى إذا فاز بها، ثم مضى زمن يسير، رجع لحذفها من مقاله أو من كتابه، وقد يكون ذلك وقت الطبع، ومن هنا هذه الموسيقى الحلوة التى اشتهرت بها كتبه لاسيما فى (مدام بوفارى) و (سانت أنطونى وسلامبو)

وقد بلغ من شدة شغف فلوبير بتقرير الواقع فى قصصه أنه كان يجشم نفسه المشاق والأهوال ليصف منظراً عارضاً فى زاوية منسية من زوايا هذه القصص . من ذلك أنه أراد وصف مزرعة كرمب فى ليلة مقمرة مقرورة . . . فترك القصة بحذافيرها ، وانتظر حتى كان موسم الكرمب ، ثم رحل إلى ضاحية اشتهرت بنوع جيد من هذا المحصول ، وثمة تلبث حتى آذنت الليالى المقمرة ... ولكن صاحبه البدر طفق يتدلل ويتستر وراء السحب القاتمة.. وكان الشتاء القارس يمذبه ببرده ولياليه الطوال ، وكان فلوبير ما يبرح واقفاً وسط المزرعة بقلمه وقرطاسه ، منتظراً إشراقة واحدة من حبيبه القمر ليصف فيها منظر أشعته الفضية على أوراق الكرمب

ونال أمنيته بعد أن نال منه القمر كل أمانيه ! !

روبرت أوين والعمال

تنتقل مصر رويدا رويدا من الطور الزراعى الذى لا يتفق ومدنية هذا العصر إلى الطور الصناعى ... طور المدنية والقوة والسيادة . وقد رأت انجلترا مثل هذا الانتقال ، ورأت فيه جملة ثورات اجتماعية كانت الاشتراكية أهمها جميعاً . والاشتراكية تعنى سعادة البشر ومكافحة الفقر ، ومن هنا انضواء غالبية المفكرين تحت لوائها وسهرهم على تعميمها فى كل مناحى الحياة حتى فى دور العلم ! ويعتبر روبرت أوين (١٧٧١ — ١٨٥٨) خالق الاشتراكية وواضع مبادئها بالعلم والعمل ، بل هو الذى استحدث هذه الكلمة Socialism فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (١٨٣٥) . ومن العجيب أنه كان من أكبر غزالى القطن فى منشستر ، وله جملة ابتكارات فى صناعة الغزل تعتبر أسساً لتقدمها

وكان أوين يحب الاختلاط بالعمال ، ودأب من كثب على دراسة أحوالهم ومعايشهم ، وكان يروعه فقرهم وقذارتهم وعدم قيام رواتبهم الضئيلة بحوائجهم ، فنذر ، إذا واتاه الحظ ، أن يحدث فى حياتهم ثورة تطفر بهم إلى السعادة ... وقد حققت الأيام مطامحه فأصبح من أغنياء منشستر ، وذكر نذره فأنشأ مصانعه العظيمة فى نيولانارك New Lanark على أحدث النظم وعلى أحسن القواعد الصحية ، وكان أهم ما عمله لترقية العمال تحسين أجورهم وتقليل ساعات العمل (وكانت ١٢ ساعة فخفضها إلى عشر ، ثم إلى ثمان) ، وأنشأ لهم مساكن صحية ، وحرّم العمل على صغار الأطفال (أقل من عشر سنوات) ، وضمن التعليم الابتدائى بالمجان لأبنائهم ، وأنشأ لعماله مستشفى بجوار المصنع جلب اليه أمهر الأطباء وأحدث الآلات الطبية ، ووضع للطاعنين فى السن منهم نظاماً يكفل لهم شيخوخة سعيدة

ولم يكتف أوين باستحداث هذه النظم لرفاهية العمال فى مصانعه فقط ؛ بل عمل على تعميمها فى المصانع الأخرى ... ولذلك ثار فى وجهه أصحاب هذه المصانع ، وكان أكثرهم من اليهود ، ممن لا هم لهم إلا امتصاص دماء الانسانية وصهرها ثم تحويلها إلى ذهب ! ولكن أوين العظيم صمد لهم ، وما زال بالشعب وبالعمال وبالحكومة حتى انتصرت مبادئه ، وأصبح العامل الانجليزى مدى قرن من الزمان أسعد ألف مرة من اخوانه فى جميع الآفاق

ولم يكن أوين صاحب مصانع فحسب ، بل كان كاتباً وخطيباً مفوهاً ، ولذا كانت خطبه تسحر العمال وتبعث فيهم الشعور بالكرامة وتشيع فى أعطافهم الكبرياء

اليوجنيه الحديثة New Eugenics

اليوجنيه أو علم تحسين النسل هو علم حديث يرجع إلى سنة ١٨٨٥ فقط ، وموجده هو السير فرنسس جالتون المتوفى سنة ١٩١١ . وقد أوصى عند موته أن يرصد جزء كبير من دخله لانشاء كرسى لهذا العلم فى جامعة لندن ؛ وقد اشتغل السير جالتون كثيراً بعلوم الأحياء قبل أن يلتفت إلى هذا العلم . ومن رأيه قصر التناسل على الفئة العاقلة القوية ذات الفضائل من الناس لايجاد جيل راق يقود البشرية مرحلة كبيرة إلى السوبرمان ؛ وقد سمى هذه العملية من برنامجه positive eugenics ومن رأيه كذلك حرمان البلهاء والمرضى والمجرمين وأهل الرذائل من التناسل حتى لا يؤخروا موكب الانسانية عن التقدم والرقى ويسمى هذه العملية negative eugenics

وسير جالتون يعنى عناية كبيرة بمذهب السلوكيين فى السيكلوجية الحديثة ، بل هو قد اتخذ من مباحثهم الطريقة نبراساً له فى وضع الدعائم لهذا العلم الجديد د . خ

الكتب

البراجماتزم

للأستاذ يعقوب فام

أصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

بقلم الأديب ت. الطويل

يقول الأستاذ الجليل أحمد أمين فى المقدمة التى مهد بها لقصة الفلسفة اليونانية : « لا بد للأديب الحق من وقوف تام على علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال وبالجملة على فروع الفلسفة، فذلك يجعل نتاجه أقوم، وتفكيره أعمق، وأفقه أوسع، ومنابع تفكيره أغزر، ويحمله على أن يفلسف الأدب ؛ ولا يتسنى ذلك إلا إذا أدّبنا له الفلسفة »

وقد أدب الأستاذ وزميله الفلسفة اليونانية فأحسنا تأديبها، والتزما فى عرضها مسلك الأديب فى الكشف عن خواطره فى أسلوب يجمع بين السلاسة والرصانة . واستفرغا الوسع فى العمل على رفعة القارئ إلى مستوى الكاتب . . . ثم أخرج الأستاذ يعقوب فام كتابه فى « البراجماتزم » وسلك فيه مسلك العلماء فى تبيان خواطرهم وعرض آرائهم . وتبسيط المعقد من أفكارهم . لم يقف حيث هو فى ذروته ويمد يده الى القراء ليرفعهم اليه ويعلو بهم الى مستواه . بل هبط اليهم وتبسط معهم وأخذ يتألفهم ويترضاهم فى إسراف — قد يدعو الى الملل أحياناً — رغبة منه فى اكتساب مرضاتهم عنه حتى يقبلوا اصطحابه إلى حيث يعبس . فأنت تقرأ الكتاب فلا تحس وأنت ماض بين صفحاته إلا أن الاستاذ يعقوب مدرس يلقى على تلامذته الصغار درساً فى الفلسفة، فهو مشفق عليهم من وعورة مسالكها وظلمة مراديها ورحابة آفاقها، يعرضها عليهم فكرة بعد فكرة فى تفصيل وإطناب، ولا يترك رأياً إلا دار حوله بعد الاسهاب فى شرحه متوهماً أن بعض التلاميذ لا يزالون يعالجون الفهم فيستعصى عليهم، ولكنه يعود فيتذكر أنه يكتب كتاباً ستتناوله أيدى فئات من القراء تتفاوت فى المدارك قوة وضعفاً، فيعتذر لقارئه عن الاطالة ويستأذنه فى المضى الى طريقه ؛ ويعود سيرته الأولى موضحاً رأيه بأسلوب يمتاز بالسهولة والبساطة وإن لازمته الركاكة، ويسوق لتلامذته الأمثلة المستمدة من حياتهم اليومية، حتى إذا فرغ من شرحه عاد فلخص ما أسلف فيه القول، ولم يبق عليه بعد هذا إلا أن يضع لهم طائفة من الأسئلة يتناول بها آفاق الموضوع شأنه فى ذلك شأن المدرسين الذين يضعون لتلامذتهم مصنفات تتناول برامج الدراسة المقررة . . . !

والأستاذ أحمد أمين أديب عالم، ولكنه قد سلك مسلك الأدباء فى الكتاب الذى صنفه بالاشتراك مع زميله الأستاذ زكى نجيب مؤثراً هذه الطريقة مقتنعاً بها راضياً عنها . وكذلك قل فى الأستاذ يعقوب وإيثاره للطريقة التى أسلفنا الاشارة اليها الآن ؛ وأكبر الظن عندى أنه لا يستطيع غيرها إن لم يكن مقتنعاً بها . وأنه غير نادم على عجزه عن « تأديب » الفلسفة . لأنه لا يحترم الأدب ولا يكبر أهله . فالأديب رجل مخرِّف لا تعنيه إلا زخرفة اللفظ وبهرجة الأسلوب اللغوى ..! فان كان القارئ قد تملكه العجب لهذا التعبير فليسمع نصّ ما يقوله الأستاذ يعقوب فام ص ٧٢ :

« هل العقل الانسانى مرآة فقط ليس لها من عمل سوى أن تعكس الحقائق الخارجية دون تصرف أو تدخل من ناحية ؟ أم هو كالفنان الذى يتناول قطعة الحجر ويصنع منها تمثالاً جميلاً منظماً متناسباً ؟ أم هو لا هذا ولا ذاك وإنما يشبه الأديب الذى يخلق الأشخاص والحوادث والبيئة المحيطة بهذين خلقاً من العدم ؟ (العفو !) على الاجابة عن هذا السؤال يتوقف الشىء الكثير . فلو قلنا إن العقل كالمرآة كنا من أتباع فلاسفة الواقعيين ؛ وإن قلنا إن العقل كالأديب يخلق الكون خلقاً، وإن الأشياء لا وجود لها فى

ذاتها وانما وجودها يتوقف على العقل وحده كنا من أتباع الفكريين Ideabsts الذين يزعمون أن الحقيقة هى عقل أو فكر وأن المادة شيء وهمى لا وجود له . وأما إن قلنا إن العقل يكيف الحقائق الخارجية Facts of Experiences كما أن ..... الخ »

هذه هى نظرة الأستاذ الى الأدب وأهله . ولست أعرف فى الأدب مذهباً يتيح لصاحبه أن يخلق من العدم أشخاصه وحوادثه وبيئته — ان كان فى وسعه أن يفعل ذلك — والغريب أن يفرق الأستاذ الكريم بين الأدب والفن هذه التفرقة العجيبة التى لم أسمع بها على هذا النحو من قبل اليوم . ثم كيف يخلق الانسان من العدم بيئة تمج بالحوادث والأشخاص ؟ أبالخيال ؟ إن عجبك ليشتد وينمو حتى يملأ شعاب نفسك حين ترى الأستاذ يقول ص ٨٣ ما نصه :

« هذا الشعور الخفى بالحق (عند المتصوفة) يقابل الخيال عند الرجل العادى . فالخيال ينتج من التفاعل بين مجموعة الاختبارات التى جازها الفرد فى حياته اليومية ، ومن نشاطه بين أفراد نوعه ، ومن الغرائز الموروثة . هذا التفاعل بين الاختبارات والدوافع الموروثة عند الفرد هو الذى ينتج الخيال . ومع أن النتيجة قد تكون واحدة إلا أن الفرق بين التصوف والخيال واضح ، فالأخير مبنى على العقل والاختبار ، والأول مبنى على القوى الخارقة للطبيعة التى تلقى بالمعارف الى الانسان إلقاء . الخيال إنما هو قفزة يقفزها الانسان إلى الامام ، والتصوف هو الاستسلام للاتصال الخفى بين الفرد وعالم الأرواح ، أو الفرق بين الرجل العادى ذى الخيال الخصب ، والرجل الصوفى هو هذا : الأول منهما متصل بالحياة وبالاختبار وبنشاط الجسد من مشاهدة وحس بأنواعه ... »

هذا هو الخيال عند الرجل العادى كما يفهمه الأستاذ يعقوب ، أما الخيال عند الأديب كما قال ، فهو توهم ما لا وجود له ، وتصوير مالم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يدركه حس ؛ هو نوع من الرجم بالغيب والحدس باللامعلوم ! لا تقل إن الأديب فى عرف الأستاذ رجل مجنون ، فان المجنون لا يفعل فى تصرفاته أكثر من أن يستعيد صورا ذهنية عن مدركات حسية فى شكل مبالغ فيه الى حد يتجاوز حدود العقل ويتخطى نطاق العرف . فالمجنون أقرب الى الحياة من الأديب فى رأى الأستاذ ..! ولهذا ارتقى الى ذهنى الظن بأن الأستاذ غير نادم على أنه لم يكن أديباً .. كما أشرت الى هذا قبلاً

وأكبر الظن أن الأستاذ يعقوب قد اختلط عليه معنى الـ Idealists فى الفلسفة ومعناها فى الأدب . ففى الفلسفة يراد باللفظة « التصوريون » — وأنا أوثر هذه الترجمة على « الفكريين » التى يستعملها الأستاذ حتى لايختلط معناها بالعقليين Rationalists — وهم الذين يظنون أن الحقيقة فكر ، وأن المادة لا وجود لها ، كما أبان الأستاذ ، ثم يراد بلفظة الـ Idealists فى الأدب « المثاليين » ، وهم الذين ينزعون الى تصوير المثل العليا ، والتحدث الى الناس عما ينبغى أن يكون . فهى فى الفلسفة مشتقة من Idea أى فكرة أو صورة ذهنية . وهى فى الأدب مشتقة من Ideal أى مثل أعلى . والأديب المثالى لا يخلق من العدم شيئاً ، وإنما يدرس « الكائن » فى هذه الدنيا فلا يعجبه ولا يروقه فَيَحِنّ الى كمال يعوّض هذا النقص ، ويصور المثل الأعلى الذى يحقق ما ينبغى أن يكون . وهو فى تصوره إنما يعتمد على المدركات الحسية فى أرحب معانيها ، وخياله لا يؤلف له الصور الحبيبة الى النفس إلا بالاعتماد على ما يعرفه من مدركات الحس . فان كان للمذهب التصورى وجاهته فى الفلسفة فهو بمعناه الفلسفى هراء فى عرف الأدب وأهله

على أن هذا الكلام لا يراد به الطعن فى الطريقة التى سلكها الأستاذ يعقوب . فان تأليف كتاب يتناول هذه الآفاق الرحيبة فى الفلسفة وعلاجها على هذا النحو البسيط السهل الميسور لكل قارىء لمقدرة ومهارة تستحقان كل ثناء وإعجاب . فان كنت فى شك من هذا فقارن ما كتبه الأستاذ بما يكتبه أغلب الذين ينقلون الى الجمهور نظريات علم النفس ، ترَ العجز البيّن عن تمصير ما يكتبون حتى فى نقل الأمثلة التى قرأوها فى المراجع الأجنبية . . . ! أما الأستاذ يعقوب فهو يحدثك عن أحدث مذاهب الفلسفة وأقدمها فَتُحِسّ وكأن أصحابها مصريون تحسن فهمهم وتجيد تقديرهم ولا تجد بينك وبينهم هوة فى فكر أو روح . . . !

وقد انتهى الأستاذ إلى هذا التوفيق بعد جهد كان أبرز آياته الاتئاد عند كل فكرة والاطناب فى شرحها حتى يطمئن على سهولة فهمها ويسر إدراكها . على أن هذا الاتئاد وإن لازمه فى « شرح »

الكتاب منذ بدايته حتى نهايته ، فان فى بعض الفصول التى أضافها الأستاذ توضيحاً للمذاهب أو تمهيداً لذكرها أحكاماً يشوبها الضعف أو نقصاً فى استيفاء الموضوع . أو هكذا يخيل إلىّ . . . فتراه يكتب فصلاً يدلل فيه على أن الناس خاصتهم وعامتهم يتفلسفون وإن أنكر بعضهم أنه يتفلسف . . ! ذلك لأنهم يعيشون فى الدنيا ويضربون فى زحمتها متأثرين بآراء قد تولت الفلسفة البحث فيها وانتهت منها إلى نظريات ومذاهب قد يعرفها طغام الناس . وهــذا رأى غريب ، لأن الفلسفة ليست « عناوين » من عرفها كان من حقه أن يكون فيلسوفاً ، وإنما هى « بحث » يتناول الآفاق المجهولة فى رحاب الحياة ، هى « بحث » مجهول للناس يتناول ما تجهله العلوم وأهلها — ونهجها فى ذلك توضحه هذه الجملة : أنى وقف التفكير العلمى بدأ التفكير الفلسفى — فالناس عامتهم وخاصتهم لا يتفلسفون وإنمــا تبلغهم آراء يوحى بها الدين أو عليها العرف — بما يؤلفه من مختلف العناصر — فيعملون بها ويسيرون على نهجها من غير تفكير فى أمرها ؛ فان تناولوها بالجدل حيناً فسرعان ماينحرفون عنه مقتنعين ولو بلاشىء . وليس هذا شأن المتفلسفة فى أى زمان أو مكان . . . أو ترى الأستاذ يكتب فصلاً ممتعاً يتناول فيه وظيفة العلم وطريقته فى البحث ويلخص لك ما ينتهى اليه ويثبته فى أرقام مسلسلة ليتيسر للقارىء معرفة الفوارق بينه وبين الفلسفة ، ولكنه ينسى أن يتحدث فى هذا الفصل عن أولى الخواص التى لا يستطيع الانسان فى العصر الحديث أن يتصور العلم من دونها ، وهى أن العلم يمتاز من سائر آفاق المعرفة الانسانية فى أنه « يبحث الشىء من حيث هو شىء » وليست تعنيه علاقة هذا الشىء بغيره من الناس . ولهذا كان العلماء آخر من يفكر فى الانسانية ويعطف عليها ، لأن التفكير فى صالحها يدخل فى باب العاطفة ، وبين العلم والعاطفة عداء مستحكم الحلقات . فيخترع الغازات السامة أو الغواصات أو الدبابات وما اليها عالم موفق قد تهيأت له أسباب النجاح فى تطبيق نظريات العلم — وإن ساء فيه رأى المجتمع وجزع الناس لمــا اخترع — وإن قلت له إن عملك يشقى الناس أجابك على الفور : أنا عالم ، أبحث الشىء من حيث علاقته بذاته ، ولا شأن لى بعد هذا بما تفضى اليه نتائج البحث وتطبيقها خيراً كان أو شراً »

على أن من العــدل أن نقول إن قيمة الكتب لا يحددها اتفاق الرأى بين الكاتب والقارىء ، وإن خلوها من المآخذ التى يتصورها الناقد لا يصلح أن يكون مقياساً للاعجاب بها والرضا عنها ، لأن مدارك الناس فى تفاوت ، ثم إن خلوهم من النقص محال

وقد تثير هذه الكلمة فى نفسك سؤالاً تطلب الى فيه أن ألخص لك « البراجماتزم » ولكنى لن أجيبك الى مطلبك إشفاقاً على نفسى من الاضطلاع بهذا العمل . وأمامك كتاب الأستاذ يعقوب فاقرأه تعلم أن لجنة التأليف والترجمة والنشر قد أنصفت فى اختيار هذا الرجل للقيام بتأليف هذا الكتاب ، فهو عالم يكثر الاطلاع ، ويحسن الفهم ، ويجيد العرض ؛ ويحب أمريكا ! ومن أقدر على الكلام فى « البراجماتزم » من رجل تتوفر له هذه الصفات . . ؟

ث . الطويل
ليسانسيه فى الفلسفة